كتاب

روح العمران

﴿ تأليف ﴾

محمد فراج احمد الازهرى المنياوى

« وهو كتاب أخلاقي اجتماعي عمراني »

أظهر فيه مؤلفه فضل العرب على المدنيه وكشف فيه عن بعض أسرار الشريعة الاسلامية وضمنه البحث عن وحدة الزوجية في الاسلام بالنسبة لأخلاق المجموع الحاضرة وعن الروح وحكم القرآن فيها بعد ذكر آراء الفلاسفة وغير ذلك من المواضع الدينية التي سيعرف القارئ بها نسبة المسلمين الى الاسلام

ثمن النسخة ١٠ قروش صاغ قبل الطبع و٢٠ قرشا بعد الطبع

(مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة ١٣٣٢ هـ)



﴿ سمو خديوينا المعظم ﴾

كتاب

روح العمران

﴿ تأليف ﴾

محمد فراج احمد الازهرى المنياوى

« وهو كتاب اخلاقي اجتماعى عمرانى »

أظهر فيه مؤلفه فضل العرب على المدنيه وكشف فيه عن بعض أسرار الشريعة الاسلامية وضمنه البحث عن وحدة الزوجية فى الاسلام بالنسبة لأخلاق المجموع الحاضرة وعن الروح وحكم القرآن فيها بعد ذكر أراء الفلاسفة وغير ذلك من المواضع الدينية التى سيعرف القارئ بها نسبة المسلمين الى الاسلام

ثمن النسخة ١٠ قروش صاغ قبل الطبع و٢٠ قرشا بعد الطبع

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة ١٣٣١ هـ

١٠٦٣

اهداء الكتاب

(لمولانا سمو الجناب الخديوي المعظم)

بسم الله الرحمن الرحيم

(الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء) فاللهم يا رب نوّر علينا بفضلك بصائرنا وافتح لنا من أبواب علمك ما ندرك به معنى الواجب علينا لولاة أمورنا فان الأمم التي ليس لها من نفسها وازع يعلمها مكانة نفسها أمام راعيها من وجوب الانصياع اليه لما سلّمه الله من حقّ السلطان عليها يجب أن لا يكون لها ضمير حي يُعتد به لأن من نسى الله باهمال امتثال أمره فلا ريب ينسيه نفسه وما أحسن هذه الأخلاق التي شرعها الله في عباده مما تنتظم بها صفوفهم ويقوى بها حبل جماعتهم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) الملك من الأمة كالرأس من الجسم وما كان الجسم ليقوم بنفسه ولكل نبات غذا يستمد حياته به فالدولة سلطان بالجند

والجند أعوانٌ بالسلطان جسمٌ مركبٌ متضامنٌ بتأليف الله له وفاءً بحق الحاجة الحيوية ومن شذ عن هذه القاعدة الكونية فقد شذّ عن قوانين الله فى العالم أولئك الذين قد احتجبت عنهم مصابيح الحق يجادلون فى الله بغير علم وما كنت لترى أمة تبعثرت من حول راعيها إلا وأصبحت بعد عزة منعتها ذليلة لاحول لها ولا قوة من أجل هذه التعاليم الحكيمة التى شرعها الله فينا وقضاء لحق سمو الامير علينا رأيت أن لا مندوحة لى من اهداء كتابى (روح العمران) لمليك مصر وعزيزها المحبوب فلئن كان بعض الناس فى الامم الراقية المتمدنة يهدون ملوكهم بالاحجار الوضاءة والمعادن الوهاجة فما كنت لاهدى مولاى (العباس) الاّ بثمر من ثمار ماغرس فى الأزهر المعمور تلك الكلية الدينية العتيقة التى قد شاد سموه صروحها بعد أن انهارت فى تلك القرون الاولى التى قد سقط في بعضها نجم العلم وارتفع حتى أصبحت بسعى سموه فى سبيل اصلاحها مهبط أسرار اللغة العربية ومشرق أنوار الشريعة الاسلامية لقدكان أهل الأزهر فى تلك الايام الخالية يلتحفون فراشهم غطاءلهم يتقون به شرعادية الحر والبرد ولكن عاطفة سموه النازعة الى تكريم العلم والعلماء عظمت عليه أن يرى أهل الدين على ذلك الحال الذى لا يتفق مع كرامتهم فرتب لهم المرتبات وساق لهم من الاموال الطائلة ماسد به فقرهم وزاد على حاجتهم وأصبح العالم الدّينى بمحض عناية سموه من ملوك الثروة الروحية والمادية معاً على خلاف ما عهد فى العادة من أن تحصيل أحد الثروتين يمنع من تحصيل الاخرى ... كذلك تكون عناية الملوك برجال الدين أولئك هم ملوك الاخلاق الذين قد أكبروا داعي الله فيهم بتلبية نداءه فلم يكن ليقصر

سلطانهم على دولة الاجسام والاشباح بل مع ذلك على دولة القوى الروحية اعتنى سمو مولانا العباس بشأن ذلك المعهد الديني العتيق فأحدث فيه مجلس للادارة بعد أن كانت الاعمال الادارية تباشر بمنزل شيخ الأزهر ومجلس عالى ومجلس أعلى وآوى كتبه المتبعثرة بالاروقة الى دار واحدة تجمعها وهى ماتسميها الآن بالكتبخانة الازهرية وما كانت غاية سموه الا أن يتقدم بالازهر خطوة الى الامام على النحو الذى يقضى به الرقي المصري ولم يكن ليمسك بعنايته عن غير الازهر بل ما من خير أحدث تحت سماء مصر الا وسموه هو الذى قد وضع الحجر الاول فى أساسه ولقد رويت عن رجل كبير أثق بخبره ممن لهم مكانة مكينة فى الهيئة الرسمية والاجتماعية معاً بأن رجلا ممثلا غربياً جاء الى مصر فمثل ما شاء الله أن يمثل من الروايات فى (الاوبر الخديوية) وقام فى نفسه ان يختم عمله بليلة خيرية يمثل فيها رواية ليتبرع بقيمة ما يجمع من المال للفقراء المعوزين فصدر يومئذ أمر سمو مولانا العباس بانشاء الجمعية الخيرية الاسلامية التى يصح أن تكون من أكبر العوامل على ازالة جهالة كثير من أبناء الأمة الفقراء والله يعلم ان كثيراً من من الاذكياء يموتون فريسة الجهل مما يحيط بهم من الفاقة التى تحول بينهم وبين تربية قوتهم الروحية ... ولعظم عاطفة الفضيلة فى قلب سموه الطاهر لم يكن ليقرب اليه الا خير العاملين المخلصين الذين يرون فى أنفسهم أنهم ما كانوا الا للاخذ بناصر الانسانية والتفانى فى سبيل خدمة الفضيلة ذلك هو رجل من رجال حاشيته الكريمة وهو صاحب السعادة محمود بك محمد قام هذا في مبدأ أيامه يومئذ كانت ربوع العلم فى مصر واهنة البناء قليلة الاعمدة فأنشأ مدرسة مع اخوانه المعاصرين له سماها (بمدرسة النيل كانت تدرس فيها العلوم



﴿ صورة المؤلف ﴾

على نحو ما ترى فى مدارس الحكومة اليوم ثم عرضت له عوارض لم تمكنه من استمرار الاشراف عليها فانقضت كما انقضى غيرها بكر الغداة ومر العشى)

فسبحان من يرث الارض ومن عليها من أجل هـذه الأخلاق الملوكية العالية أريت نفسى مضطرًا الى اهـداء كتابى الى مقامه الملوكي الأسمى

فهذى يامولاى هديتى أرفعها الى مقامكم الملوكى وعرش سلطانكم الكريم ولى عظيم الثقـة يامولاى فى عطف سموكم على عبدكم الخاضع أن تتقبلو هديته على قلة بضاعته العامية ليكون هذا التنازل في قبول هديته من أكبر العوامل المشجعة له ولأمثاله على التفاني فى سبيل خدمة العلم وما هذا الا نبذة أزهريه من ثمار غرسك اليانع هـذا ولا زلت يامولاى مع الاسرة الكريمة المحمدية العلوية محفوفًا بالعناية الربانيـة ترفرف أبداً على عرشى سلطانك راية الملك انه سميع مجيب

عبدكم الخاضع

محمد فراج الازهرى

المنياوى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لله فى الكون من آثار وحدة الوجود الواجب ماتنبهر لجلاله الألباب فحمداً لمن أبدع هذا النظام بعظيم حكمته وشيد بناء العمران على وفق ما تقتضيه طبيعة الانسان (ولله المثل الأعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم) وصلاة وسلاما على من رفع بأرواح المجموع فى ربوع الجاهلية الى الملإ الأعلى فكان للعاملين بما جاء به صلى الله عليه وسلم من التعاليم السماويه من حظيرات القدس ما ينعمون به فى تلك الحياة الأبديه ورضي الله عن آله وأصحابه الذين اهتدو بهديه وتمسكو بأرشاده فكان لهم بانصياعهم لصاحب الشريعه من سلطان القهر على أعدائهم ماقد بسطوا به نور العلم والمدنية على أمم العالم وأخذت عوامل الوحشية من ذلك الحين تتقهقر أمام داعي العمران (ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه هو الباطل) * (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) *(وبعد)* فلقد مر على الانسان قرون وأجيال وقد تناوبته الشرائع السماوية والوضعية بحسب مايراه الشارع منطبعاً في أخلاقه فى كل زمان لقد مضى مامضى من أيام الدنيا على الانسان وهو هو بعينه لم يكن

ليتغير فى صورته ولا فى تكوينه الخَلق والخلق وكلما تقرأه عنه فى تاريخه القديم من مبدأ نشأته من تزاحمه لافراد بنى نوعه فى جميع الاطوار الحيوية حتى في العصور الوسطى عصور المدنيـة والحضارة هو ما تراه اليوم قائما بين الافراد يستوى فى ذلك العالم والجاهل . والوضيع والرفيع . والقوى والضعيف . تزاحم في الفيضلة . تزاحم فى الرذيلة . تزاحم فى العلم . تزاحم فى الجهل . تزاحم فى الفناء . تزاحم فى البقاء . تزاحم فى السلم . تزاحم فى الحرب كلها أعراض تعرض للانسان بنسبة مكانتـه العاملية ضعة ورفعة ويحكم داعية الوسط الذى يعيش فيه هـذا هو الشأن فى الانسان بحسب ماطبع عليه وان كان نازع الخير فيه ليس شيئاً مذكوراً أمام جيوش نفسه العدوانية لذلك لم يكن ليقف تيار نجيعه[١] بل قد استمر يعج[٢] مع مجموع أبناء عشيرته وقومه فى سبيل التنافس في تحصيل ماقضت به نفسه ولم تكن لتسكن عوامل الشر فيه اللهم إلا على وجـه نسبي فى كل حين أشرقت فيه الأرض بسبحات[٣] الشرائع الالهية هكذا قـد مرت على الانسان أطوار متباينة سقط فيها نجم مكانته الاخلاقية وارتفع ولولا ماقضت به السنن الـكونية فى بقاء هذا العمران من ضرورة الوزاع فى كل أمة ليأخذ كل حقـه بيمينه لا فرق بين قوى القوم وضعيفهم ووضيعهم وشريفهم لرأيت العالم فى غياهب البربرية وعماية الجهالة ـ أخـذت الشرائع السماوية تنتقل بالانسان من مرتبة الى أخرى وكلما نأى عن بارئه وفاء بحق الطبيعة واستسلاما لداعى النفس فيه كلما عظمت عناية الله بشأنه (سنة الله في الخلق ولن تجد لسنة الله تبديلا) استمرت الشرائع تتناوبه شريعة بعـد أخرى

(١) النجيع دم الجوف (٢) يعج يصيح (٣) السبحات الانوار

حتى جاء موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بكلمة من كلماته هي جماع السعادة في الامم وما هذه الكلمة تلك هي العدل بمعناه القطعي لا بما تعارفه الناس بينهم مما تجنح اليه أميالهم وأهواؤهم ويسمونه عدلا أجل ان العدل هو جماع الخير وينبوع الفضيلة ويستحيل على أية أمة من الأمم أن تكون لها ثروة مادية أو أدبية أو يسود لها سلطان في العالم الا اذا عرفت ما عليها من الحق لغيرها فأدته ومالها عليه فطالبت به كما يصعب على الفرد الواحد أن يقوم في الوسط الذي يعيش فيه الا اذا انتقشت نفسه بهذا النوع من الخلق ذلك لان الظلم افتراس لنواميس الطبيعة وتعطيل للقوى الفعالة عن مزاولة العمل وانتهاك للحرمات وبذر لضروب الذل والمسكنة وقتل لارواح المجموع ومن ثمة كان الظالم في كل أطواره مذعوراً تروعه صغائر الامور فتراه يشعر بأنه محاط بعالم من الخطر تهدده الأوهام بنذير البلاء ويدعوه في كل آونة داعي الظلم الى الفناء وتتمثل له صور الخطوب بعامل وبلا عامل فهو مهدد في شخصه مهدد في ماله مهدد في عامه لسلطان الحمام له نذير يحمل اليه رسالة من صحائف أعماله السوداء فينطفىء في معناه الانساني ما كان يتلألأ من مصباح ذلك الشعور الحي ويتضاءل فيه سلطان الطبيعة وتنطمس منه معالم الفكر لان النفس الشريرة الاثيمة مهما طفت فيها روح الجبروت وتكاثفت على بصيرتها غيوم الجهالة فلا ريب تتناوبها ضروب الصغار وتحوم حولها أبداً قشعريرة من الذل بما تشعر به من هول الفعل اذا هي قد أخذت تفكر في استهجان عملها في صومعة وحدتها الظلوم عشوم مسكين تتناوبه سكرات الموت بلا نذير وتقبض روحه كل يوم بلا قابض بما يصطلي عليه من نيران الجبن فبقدر ما يراه الناس فيه من

الشجاعة والبأس بقدر ما يشعر به هو من نفسه في صومعة وحدته عند تقرير أعماله من عوامل الصغار والبؤس فالظالم والمظلوم كلاهما مقتول العواطف فاقد الحياة الأول مقضيّ عليه بيد الثاني والثاني مقضيّ عليه بيد نفسه وان كان للأول شبه دخل في العدوان عليه

لذلك كان الظلم مبدأ لخراب العالم ونهاية للشقاء ولم يكن الشارع الاسلامي لينسخ هذا الصرح من العدل بل أقره وشدّد في ضرورة التمسك به (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم) (اعدِلوا هو أقرب للتقوَى) (انّ الله يحبُّ المقسطين)

عصمت شريعة الكليم عقيدة الجمعية الانسانية من أن يطغى عليها ماء الوثنية العتيقة قرونا قليلة ولما أصبحت تعاليمه عبئاً ثقيلاً على كواهل القوم وابتدأت تنفصم من بينهم عقدة ذلك الجماع الديني لم يكن الله ليمسك بنوره عن عباده فبعثهم بالسيد المسيح عليه السلام فأنذر وبشر حتى زاحمت دعوته الإلهية ماقد كان يكمن في النفوس بعد تلك الفترة الأولى ولكن لم تكد تلك الدعوة تأخذ مجراها الطبيعي في قومه إلا وقد عكسها المغرمون بحب الرئاسة الدينية وأعطوها صبغة غير صبغتها فكان بين تلك التعاليم الكنيسية وبين روح الانجيل مسافات وأبعاد لا يقطعها السائر المجدّ إلا في قرون وأجيال

بعد القوم عن دعوة ذلك الروح الأمين وساد فيهم سلطان الفوضى في التعاليم وتعدّدت بينهم نواميس الشريعة بنسبة تعدُّد أفراد المجموع النازعين الى الرئاسة فاغتنم كل من السلطة على أفراد عشيرته بنسبة مسعاه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء باسم الدين تعالت المسيحية عن ذلك علوّاً كبيراً

هكذا كانت أطوار بنى آدم فى نهاية القرن السادس لرسالة المسيح عليه السلام بين متمسك بنصرانية يتبرأ منها الانجيل وبين معتنق لوثنية قد شوّهت وجه الانسانية فانطفأت بحكم تعدُّد الرؤساء الذين قد أعطوا لأنفسهم من سلطان الألوهية ما لم يكن الله ليعطيه اليهم مصابيح العلم ففقدوا جامعتهم واستباح قويهم دماء ضعيفهم ولم يكن فيهم عاصم يرجع اليه فى احترام تلك الحرمات المنتهكة فكان الرأى للغلبة والسلطان للقوة

فبربك قل لى أيها القارئ ماذا كانت تكون نتيجة الكون اذا ترك الناس في هذه البربرية المتناهية وعلى أى أساس يقوم بناء العمران اذا عمرت هذه الوحشية وليس فى القوم إلا وثنيا صميما ومسيحيا متدينًا بتلك الديانات التى قد اخترعها رؤساء الديانات الحديثة لا ريب أن العالم لو لم تتداركه حكمة الحكيم الأعلى وتتلاشاه عنايته العظمى لتضاعف الوباء وعم البلاء وانقضي الكون (ولم يكن الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

أحاطت عناية الله بعباده فلم يدعهم فى تلك الجهالة يرتعون ولا فى ذلك الظلم يصلون أنفسهم ناراً حامية بل بعثهم بالمعصوم صلى الله عليه وسلم فى فاتحة القرن السابع للنصرانيه فكانت تعاليمه وسطاً بين تعاليم اخوانه المرسلين وكان لأمته بما أخذت عنه من العدل ما جعل لها من سلطان الشهادة على غيرها ما لم يكن لسواها قال جلت حكمته (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً[١] لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) قد جاء المعصوم وبيده ذلك القانون الالهى فأبصر الناس طريق الحياتين بما أضاء به عليهم بعد أن ظلوا فى غيابة عماياتهم لا يدركون لطريق النجاة

(١) أى عدولا

سبيلا وقد بشرت برسالته صلى الله عليه وسلم الشريعة الموسوية فالعيسوية جاء فى التوراه فى الاصحاح الثامن سفر التثنية (وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين اخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا الذى أنتقم منه فأما النبي الذى يجترئ على بالكبرياء ويتكلم باسمى بما لم آمره به أوباسم آلهة أخرى فليقتل واذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والنبي الكاذب فهذه علامتك أن ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه) ومصداق ذلك فى عبارة القرآن (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وجاء فى الانجيل (وسيأتى لكم الفارقليط وسيوبخ العالم على خطيئته ويعلمهم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع) ومصداق ذلك بعبارة القرآن (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) والفارقليط كلمة عبرانية تعريبها أحمد أو محمد وقد نص على ذلك القرآن فقال تعالى (واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدّقاً لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدي اسمه أحمد)

جاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم والأخطار تحيطه من كل جانب من أرباب الديانات الاخرى شأن كل رسول يبعث فى قومه ولولا عناية الله به لرأى من هول المنظر أضعاف ما رأى (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا)

عرض للاسلام من الأطوار المتباينة ما عرض لغيره وان كانت دعوته صلى الله عليه وسلم قد خرقت حجب الأباطيل وسرت في قلب العالم فى

ظرف لم يعهد له مثال
في تاريخ أية شريعة من شرائع الله في العالم أجمع وما هو إلا ذلك الروح الأمين قد أمدّه بفيض إلهي (الله أعلم حيث يجعل رسالته)
ومهما يكن قد عرض للاسلام في أيامه الأولى فليس شيئاً مذكوراً في جانب ما نشاهده اليوم أقول ما نشاهده اليوم وأنا في طور لا أملك فيه اضطراب نفس من هول ما يروعني ويهول كل مسلم عنده قطرة من دم الشرف الانساني
نحن الآن في برزخ بين الماضي والمستقبل وليس من شأننا أن نبحث عما سيكون غداً فعلم ذلك يستأثر به الله وحده وانما الذي علينا البحث فيه هو ما يحيط بنا في هذا الظرف ازاء هذه المدنية الحديثة

لقد نظرت في المسلمين اليوم نظرة فوجدت مثلهم في دينهم مثل رجل مريض أحمق أمام طبيب يصف له دواء علاجه فكلما قام فيه معلما له دواء نفسه كلما نبذ تعاليمه وأضمر له من عوامل العداوة والبغضاء ما لا سبيل معه الى الانصياع لدعوته فانقضى فريسة حماقته لجموحه الى ما لا يتفق مع مصلحته بوجه عام

المسلمون في دينهم صنفان — وفي كل صنف طبقات متباينة — صنف جامد لم يذق للدين طعما وانما يعطي لنفسه لقب الاسلام سيرا مع الوسط الذي قد نشأ فيه وهذه هي الطبقة الثالثة في الامة وعندي أن إيمان هذه الطبقة بالنسبة لبعض أفرادها ايمان ثابت لا تزعزعه العواصف أنى كانت مصادر ريحها فهي تحتفظ على ما تسميه العادة ديناً وان كان في الواقع ليس من الدين في شئ ومع احترامها للدين اعتقاداً عاديا فهي لم ترتدي بردائه عملا فمنها الأشرار الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض

فساداً ومنها من يحرث الأرض ويبذر البذور نهاراً ثم ينام طول ليله من غير أن يخطر بباله شيء من الدين وان كان يفزع للدفاع عنه عند الحاجة ومنها المتدين بما يسمعه من أفواه شيوخ القرى ومخرفين الأمصار من كثرة الأقاصيص وخليط القول وقد يترقي هذا فى صلاحه خصوصاً اذا تقلد طريقة عن بعض مشايخ الطرق المنتشرين فى أنحاء المعموره ومعلوم أن هؤلاء لا يمتازون عن العامة إلا فى الشحاذه والخدعة وانبعاث ذقونهم لترويج بضاعتهم

يفترون على الله الكذب باسم الاسلام وثمة من هذا الصنف الجامد طبقة أخرى قد يصح أن تكون أرقى من هذه السابقة المتباينة فى أطوارها تلك هى التى قد نظرت فى الدين نظره وهى على بعد مرمى السهم منه فلم تكن لتدركه إلا على شكله الصورى ولكنها رجعت من سفرها هذا زاعمة أنها قد اكتشفت كنه الدين ووقفت على غوامض أسراره وما هو فى زعمها إلا مجموعة من الأحكام السماوية يرجع سر التشريع فيها الى ضروره الانزواء عن العالم وحبس العقول عن النظر والكف عن العمل وفاء بحق ما يسمونه زهداً فى الدنيا أو استسلاما لواجب القضاء والقدر يجمدون عن النظر فى ملكوت السموات والأرض يأمرون الناس بالجمود يقتلون عواطف المجموع بما يبعثونه فيهم من سموم ألسنتهم (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون)

اعتكف هذا الطائف بعوامل خموله عن الدين باسم الدين فغرر بعقول الأمة بعد أن قرر فيهم روح الجبن بطريقة عملية وأخذ السواد الاعظم من عوام المسلمين مع اختلاف طبقاتهم ينسجون على مبادئهم فاختلطت

العقائد بالعوائد وأصبحنا بفضل تلك العمائم يسخر بنا فى عقائدنا ويستهان بنا في منعتنا لما وصلنا اليه بمسعانا من هذه المكانة فى الخزى وأصبح الرجل الغربي يرى المسلمين بما يرى به بقية الحيوانات العجمى (آلات مسخرة اليه خلقها الله على صورة الانسان)

ان هذا الطور الذى نرى عليه المسلمين اليوم مما أضحك عليهم الأمم في سائر أنحاء البسيطة ليس من الاسلام فى شيء وانما هى بقية باقية من تلك الأديان القديمة سرت اليهم من دسائس أعداء الدين أولئك الذين قد أرادوا قلب المسلمين في شخص الاسلام فلم يكن ليطيش سهمهم بل قد أصاب مرماه ليكون لهذه الأمة من العبرة في هذه الطرقة الشديدة المؤلمة ما يتيقظون به من هذا النوم العميق وإنا لنا لتعزية نتعزى بها فى فى مصابنا الأليم فيما قاله الحكيم العربى

قضى الله فينا بالذي هو كائن ... فتم وضاعت حكمة الحكماء
وهل يأنف الانسان من ملك ربه ... فيخرج من أرض له وسماء
وقد بان أن النجمى ليس بغافل ... له عمل فى أنجم الفهماء
أفيقوا أفيقوا يا غواه فانما ... دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فادركوا ... وبادوا وماتت سنة اللؤماء
يقولون ان الدهر قدحان موته ... ولم يبق فى الأيام غير ذماء
وقد كذبوا مايعرفون انقضاءه ... فلا تسمعوا من كاذب الزعماء
وكيف أقضى ساعة بمسرة ... وأعلم أن الموت من غرماء

أما الصنف الثانى المقابل للجامد فهو الصنف المتصرف وله طبقات ثلاث طبقة تنتسب للاسلام بالاسماء والألقاب تصرفت هذه عن الطبقة الثالثة

من الصنف الجامد بما عرفته في المدارس التحضيرية أو شبهها من اللغة الفرنسية أو الانكليزية (بما لا يمتازون به عن سائق الحمر في مصر) وبما درسته من دروس السياسة في مسارح الرقص وأندية الدعارة والفجور يتفنن الواحد من هؤلاء في لباسه الافرنجي بما يظهر به أعضاءه وقد يمضي سويعات زمانه في تزيين ظاهره يكوي رأسه تارة ويعمل في تضييق لباسه تارة أخرى ليزاحم المرأه في وظيفتها الاساسية

اني ليخجلني أن أكتب فصلاً شافياً في هذا الباب وما هذا التزاحم وقد خلق الرجل رجلا والأنثى أنثى وما كان لرجل أن يكون أنثى وما كان لأنثي أن تكون رجلاً والرجل بما خلق خير من الأنثي والانثي بما خلقت خير من الرجل ان كانت رجلا

ولو أخذت هذه الطبقة من الدين بقدر ما أخذت من سقيم القول وقبيح الفعل لتنتظم حبل الجماعة في صفوفنا الاجتماعية ولكانت الأمة أرقى الأمم تمدناً وحضارة

ولقد كنت مصاحباً لشيخ من شيوخ الازهر ولآخر من المتمدينين بالمدنية الحديثة نندب حظ المسلمين وما وصلت اليه مكانتهم من التقهقر في هذه الحروب الاخيره . فقال الشيخ في ضمن كلامه (لو تمسك المسلمون بدينهم لما أذلهم الله بأيديهم وأيدي الكافرين وكيف ذلك مع قوله تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين) فأجابه ذلك المتمدين بقوله (دعنا فهذا كلام أديم) !! . . . . . يعني بهذه العباره دعنا من هذا الكلام المتروك الذي لا يتفق مع المدنية الصحيحة التي هو عليها . ولما قوبل كلامه باستخفاف عظيم اعتذر بما وضع به نفسه أو بما هو عليه من مكانه الحقيقي قال عفى الله

عنه « اعذروني فاني مانطقت بكلمتي الا لاعتقادي بأن تلك الجملة التي نطق بها الشيخ ليست قرآنا وما هي الا عبارة من كلام القدماء » ! . . . .

هذا هو اعتقاد رجل مسلم تربى في وسط اسلامي بلغ من شأنه في الجهل بدينه الى حدّ أنه لا يميز بين القرآن وكلام الناس ... وليست هذه المخازى موحدة المصدر من المسلمين بل هي متعددة من صغار الناس وكبارهم

وقد فاجأني بمثل عبارة الأول رجل في عشرة السبعين كنت أتوسم فيه خيراً كان هـذا وكيلاً لبعض مديريات القطر المصرى في آخر أيامه جمعتني بهـذا الرجل جامعة عامية فقال منفعلاً في ضمن كلامه عن تاريخ الاسلام « ما دام المسلمون متمسكين بدينهم فلن تقوم لهم صبغة معنوية في نظر العالم المتمدين » . . فقلت له يا سعادة البك . . . لما كان الاسلام وهو عاصم لحقوق المجموع مانعاً من تقدم المتمسكين به فقرأ علينا ذلك الاحمق كلاماً سماه قرآنا لا أعرف له معنى .... هذا أيضاً شأن رجل تربى وتقلد الوظائف في بلاد الاسلام وقد تناوبته في حياته أطوار كثيرة لم يأخذ فيها درساً واحداً في دينه أكثر من الطعن فيه بما يسميه قرآنا

اللهم ان القوم قد استحبوا العمى على الهدى وأغرقوا في عماية الجهالة فأدركهم بعنايتك فاليك يكلون أمرهم في الكشف عن بصائرهم ومنك يستمدون قواهم في العمل لدينك القويم

أما الطبقة الثانية من هذا الصنف فتلك هي التي قد أخذت نصيباً مفروضاً من العلوم العصرية بقدر ما يعطيها مكانة يصح معها أن تتقلد وظيفة في الحكومة أو غيرها وهذه وان عرفت نذراً يسيراً من مبادئ الدين فقد عكست ما عرفته بخليط من الكلام لتظهر به في ندوة العلماء بمظهر

الفلاسفة القادرين على تشكيل الاقيسة المنطقية واستنتاج مايشاؤن منها من النتائج والله يعلم انهم لكاذبون

لم تأخذ هذه الطائفة المتمدينة باسم العلم قسطها من علوم الاخلاق فتصرفت بما عرفته تصرفا لا يتفق مع المدنية الصحيحة فى شئ وربما حاول بعضهم التأويل فى كتاب الله ليحلل بذلك حراما أو ليحرم حلالا مادام فى ذلك الهوس ترويج بضاعته رضى بذلك الدين أو غضب أحسن الى نفسه أم أساء

ان أفراد هذه الطبقة فى هذا البلد الاسيف عدد ليس بقليل وقد يختلط أمرهم على العامة فيخيلونهم من قادة الامة وما هذه الامة التى يقودها طائف من الناس لم يكن ليدرس فى باب الاخلاق فصلا واحدا وربما قضى نهاره نائما وليله ساهراً يسرح في مسارح اللهو واللعب ليقتل نفسه بما يعطيه اليها من المائعات السامة وما درى أن فى ذلك عدوانا على صحته وانتهاكا لحرمته ونقصانا لماليته وتلاعباً بعقله يعيثون فى الأرض فساداً بما يسمونه مدنية والله يعلم انهم لمفترون

انى لم أقف فى درس أخلاق الناس عندحد الطبقة العالية المتعالمة بل قد استقرأت جميع الطبقات من أدناها الى أعلاها لا فرق بين سقيم الاخلاق وصحيحها حتى لقد رافقت فى يوم رجلا من أولئك الذين فى قلوبهم مرض لأعمل ماستطعت على احتقار مبادئ المدنية الحديثة التى هو عليها علّ أن يكون له من بعد عسر يسراً فصادفنا في طريقنا جماعة من اخوانه العاملين على مذهبه وبحكم التوحيد فى المذهب قد أجمعوا أمرهم بينهم على أن يذهبوا الى بار لمسلم فى مصر ولم أكن لأشذ عن مصاحبتهم الى حيث

أرادوا لان الدّين الاسلامي علمنا أن نسوس الناس من حيث يمكن سياستهم (وقد وضعت شريعة الاخلاق على هذا المبدء الحكيم)

رافقت هؤلاء الذين تجمعنى بهم داعية الجنسية المصرية (ولا أقول داعية الاسلام) الى حيث نزعت أميالهم (علّ الله يحدث على يدى من أمرهم رشداً) فأخذوا يطربون أنفسهم بأصوات كؤسهم ولما أغرقوا في بحار سموم ماشربوا ولعبت بعقولهم أفاعيل وظيفتها ابتدؤا يتلاعنون دينهم على ضرب من المزاح وهم مسلمون فى العقيدة عثمانيون فى النزعة

ان مسؤلية هذه الطبقة ليست كمسؤلية غيرهم من عوام الناس فهم كما قدمنا يظهرون للمجموع بمظهر القادة والله يعلم انهم بهذه المخازى يهدمون بناء ماشيده السابقون للاسلام من المجد والشرف الانسانى بقى من هذا الصنف طبقة أخرى وهى الطبقة الحكيمة الوحيدة التى تمثل فى شخصها بعملها معنى الاسلام انقضت هذه الطبقة بانقضاء الامام الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده ولم يبق تحت سماء مصر منها الا أفراداً قليلة

هذا كنه ماعليه المسلمون بتباين طبقاتهم التى قد وقفت عليها بطريق الاستقراء وهو منظر مخجل لايليق بأمة رشيدة تسعى وراء أن تسترد شرفها الاسلامى ومجدها العربي القديم

لهذا الاعتلال الاخلاقي العام الذى قد دب دبيبه فى مجموع الامة الاسلامية فى هذه البلاد الشرقية قد وجدت من نفسى نازعا ينزع بى الى القيام بواجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وفاء بقول الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ولم أكن لاعمل على مصادرة هذا النازع

منى بالتقاعد عن العمل بل قمت أكتب وأخطب فى السنة الاولى من التلمذة على فقيد الاسلام الشيخ محمد عبده فى كل بلد أنزل فيه ولقيت فى مدينة المنيا عاصمة المدرية (وهى البلد الذى قد نشأت وتربيت فيه) من الشيوخ من ضروب الصعوبات مالم أقم لها وزنا لصدورها عن قوم لايمتازون عن العامة في اعتقادى الا بما يحفظونه من الروايات والاقاصيص الخرافية

تحرج هؤلاء من دعوتهم الى درس لغتهم العربية درساصحيحاً بحيث يعطيهم هذا الدرس من القوة الكتابية والكلامية مايستطيعون بها أن يخطبوا العامة حسبما تقتضيه أحوالهم والحوادث الواقعة بينهم .. ساءهم أن يهجروا تكرار ماسئمت سماعه العامة من مؤلفات ألفها العلماء لامة قد خلت من قبل فى زمان غير زمانهم وأباحت لهم سنة الجهل أن يخاطبوا المجنون خطاب العاقل وأن يعاملوا البار معاملة الفاجر تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين .. لم يقف الامر عند حد تحرج هذا الجمع من عوام الشيوخ بل قد جازهم الى الخاصة من بعض قضاة المحاكم الشرعية وكان من سنتى فى زمن العطلة الصيفية أن أطوف على جميع المساجدفى كل أسبوع حتى ساعدنى الله بجمع كلمة الرأى العام الى مادعوت اليه وكان الناس علي اختلاف طبقاتهم من رجال الادارة والقضاء وغيرهم ملكيين وعسكريين يهرعون أفواجا أفواجا لسماع الخطاب في المسجد الذى تنعقد النية على الاجتماع فيه وقد دعوت غير مرة حضرات قضاة المحكمة الشرعيةباعتبارهم من رجال السلطة القضائية الدينية فى اجتماع دينى لقضاء فريضة الجمعة لتكوين جمعية اسلامية يكون موضوعها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان حاضرا فى ذلك الاجتماع الرجل المفضال (سعادة الفريق)

(حسن رضوان باشا) الذى كان مديرا للمنيا فى ذلك الظرف لانه من أحرص الناس كما أعتقد ويعتقد كل عارفيه على تأدية حقوق الله فى أوقاتها دعوت حضرات القضاة الى ما هو ألصق بهم من غيرهم من القيام بواجب الدعوة الدينية علىّ أن يقتدى بهم غيرهم فى الاقاليم من رجال العلم فأحرج هذا النداء صدورهم لاعتقادهم بأن فى هذه الدعوة حطًّا من كرامتهم ولم يكن ليخطر ببالى حوالى هذه الضجة الا أن أعمل فى سبيل خدمة الانسانية غضب بذلك القوم أم رضوا ولقد جاوزوا حدا غير مألوف فى رمى سهامهم وأسرفوا فى حكمهم علىّ بالاعتزال ولقد شافهنى بذلك رجل من رجال العلم كان هذا مفتيا للمديرية ثم فصل عن وظيفته لضعف قوته البصرية ولما آخذته على جموده بعدم الرد علىّ فيما كان سببا للحكم بالاعتزال فى نفس الاجتماع الذى قد ألقيت فيه خطابي حتى تتجلى الحقيقة أمام المجموع لتكون الفائدة عامة اعتذر بأنه لم يسمع الخطاب الذى قد بعُدتُ به عن روح الدين بما فسرت من بعض آيات الذكر الحكيم ولكنه قد سمع ذلك من رئيس المحكمة الشرعية ادعى هذه الدعوة ونسى أن الخطاب كان على مسمع من العالم المفضال حسن رضوان باشا المدير وغيره من رجال العلم ولما رأيت من الواجب أن أتبين المسألة من مصدرها تحقيقا للحق زرت سعادة المدير وقصصت عليه هذا النبأ وفى الوقت نفسه حضر فضيلة القاضى مصاحبا لمأمور الاوقاف وغيره من الموظفين فتبرأ مما أسنده اليه ذلك الشيخ المفتى المتقاعد مستشهداً على حديثه فى شأنى برجلين من رجال الادارة (محمد توفيق بك مأمور المركز) و(على مظهر افندى معاون الادارة) وفى اعتقادى أن الشيخ القاضي صادق فى كلامه لانه كان نزه

اللسان كبير الأخلاق

عظمت هذه الضجة بين عوام الشيوخ ووصل الى الامام الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده كتاب فى هذا الباب لا إمضاء لكاتبيه ولم يكن ذلك ليعترضنى فى طريقى بل كان مما يزيدنى رغبة فى دعوة الناس الى دينهم الذى نبذوه فنبذهم الله بما عملوا (وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) اننى كنت بما ألاقى أتعلم درساً من الاقدام فى باب الدعوة الدينية وكلما رأيت المسلمين يفرون عن دينهم بما تدفعه اليه أميالهم كلما وجدت من نفسى نازعا ينزع بى الى الكتابة فى الجرائد والخطابة فى الاندية حتى كتبت وخطبت فى أمراضهم وتشخيص الدواء فى سبيل علاجهم ونسبتهم الى دينهم ومدنية الاسلام فى كثير من أبواب المدنية التى لها مزيد ارتباط بأمورنا الحيوية وفى مواضع أخرى اجتماعية لم يكن ليسبقنى فيها كاتب من كتاب المصريين ولا غيرهم من مسلمى العالم أجمع (كحكم الغرباء عن لغة الاسلام فى نظر الاسلام) و (كوحدة الزوجية فى الاسلام) حتى قامت عند القاء هذه المحاضرة الاخيرة قيامة القوم من بعض علماء الازهر وغيرهم واقترح بعضهم أن ترفع المسألة الى دار الخلافة الاسلامية لسماع شئ لم يكونوا ليألفوه من قبل وهو أصل من أصول دينهم وسيعلم القارئ تفصيل ذلك فى محله

كتبت فى كل ذلك وخطبت ماشاء الله أن أكتب وأخطب وقد كانت نفسى تجنح من قبل الى جمع تلك المحاضرات فى كتاب واحد ليكون انموذجا فى باب الاخلاق ومثالا لمدنية الاسلام ومجموعة اجتماعية عمرانية يعرف المسلمون بها نسبتهم الى دينهم وكيف كان تقهقرهم بعد

مجدهم ومجد أعدائهم بعد تقهقرهم ولكل مقدمات نتائج من جنسها ولكل من سعيه ثمر من صنف ما زرع والله يكسى كلا من اللباس على نحو ما أضمر وفى كل شئ مثال من نفسه يدل عليه وان كان من أحرص الناس على خفاء ماانطوى فيه مرضا وصحة قال الشاعر

ومهما يكن عند امرئ من خليقة   وان خالها تخفى على الناس تعلم

استمر هذا الداعى بنفسى يطالبنى بجمع تلك المحاضرات المتبعثرة لتعميم الفائدة وتعميرها في الحياة ما شاء الله ان تعمر فيها وكنت أسوف تحقيق ذلك فى عالم الاعيان لما كان يعترضنى فى سبيل تحصيل العلم حتى شدد علىّ فى الطلب كثير من أصدقائى وغيرهم من أنصار العلم والفضيلة فأطمعتنى هذه الرغبة العامة فى تحقيق أمنيتى ورجحت عندى جانب الايجاب على جانب السلب فجمعت تلك المحاضرات ورتبتها ترتيباً مألوفا متناسباً ووضعت كل موضوع عمرانى على أصل من أصول الشريعة الاسلامية بالاستشهاد عليه بصريح كتاب الله وسنة رسوله وبعدت به عن سنة المؤلفين المشغوفين بوضع المعانى على نسيج من أوهام الرمز ليذهبوا بالقارئ كل مذهب فى أودية الضلال فى سبيل تحصيل مايرمزون اليه فيخرجون عن السر الذى كان من أجله التأليف

لذلك جاءت عبارته بعيدة عن التعقيد سهلة التناول قريبة المأخذ وقد بذلت الجهد فى الاحتراز عن الكلمات الغريبة عن اللغة ليتسنى لكل مطلع عليه أن يقف على كنه أسراره والا كان قولنا فى غيرنا حجة علينا

وفى اعتقادى أن من استقرأ صحائفه ونظر فيه نظرة انصاف علم أن الاسلام هو المعلم الوحيد الذى قام يعلم الناس الحكمة ويمد لهم طريق

السعادة المادية والادبية بما شرح لهم من فنون الزراعة والتجارة والصناعة والحرب والسلام وغير ذلك مما هو ضروري في بقاء هذه الحياة الاجتماعية

هذا وسيكون فاتحة هذه المحاضرات محاضرة في داء الامة المصرية وتشخيص الدواء اليها ثم نتبع ذلك بتحديد معنى المدنيـة وأقسامها بحيث نعقد لكل موضوع محاضرة رئيسية مع مراعاة نظم التأليف في العبارة ليحصل من ذلك للمجموع الغاية التي نرمي اليها والله أرجو أن يوفقنا لخدمة دينه القويم وأن يرزقنا الصدق في القول والاخلاص في الفعل والاصالة في الرأي رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين

المحاضرة الاولى

﴿ في داء الامة المصرية وتشخيص الدواء اليها ﴾

شرحنا في المقدمة أطوار المسلمين بنسبة تباين طبقاتهم الاجتماعيـة وليس الحكم في أمراضهم قاصراً عليهم وإنما يشاركهم فيه غيرهم ممن تجمعهم بهم داعيـة الاخاء الجنسي أصل الانسان بدويّ ورقة الحضر عارضة اليه وأهل البادية أكثر تأثرا بما يعرض لهم من عوامل الخير والشر لأنهم على أصل الفطرة التي قد نشأوا عليها قال المعصوم صلى الله عليـه وسـلم (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه) فالبدو ألصق بالدين وأقرب تناولا له من أهل الحضر الذين قد انقضت فطرتهم بعوامل الدّعة والترف وملكات السوء التي هي ألزم للنفس الحاصلة على

ماهو ضروري في استبقاء حياتها وليس فى الوجود بدواة مطلقة بل لكل أهل بادية عمران يناسبهم بنسبة مكانتهم فى اطوارهم المعاشية . . ترى صنفامن الناس يسعى لتحصيل معاشه من طريق القيام على خدمة الحيوان ليكون له في خدمته مايسد فراغ الحاجة وقد كانت عناية العرب فى الجاهلية وبعدها عظيمة ببعض أنواع الحيوانات ليتخذوا من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين : وترى آخرين يعملون لتحصيل معاشهم من طريق القيام على درس معدن الارض درسا عمليا بالنسبة لموقعها الجغرافى فيجيد حرثها ثم يبذر مايشاء من النبات ليستخرج من بطونها ذهباً : ومهما تكن وسائل المعيشة فأمثال هؤلاء لايجتمعون الا بقدر مايكون به تعاونهم على تحصيل حاجاتهم ولا يحصلون من العمران الا بقدر مايجاور مكانهم الاجتماعي وكلما توفرت لهم الحاجة وجاوزت حد الضرورة الى الكمال كلما جنحت نفوسهم الى الاستزادة بالزائد فينتقلون بتلك السّعة العارضة من البداوة الى الحضارة ومن الخشونة الى الدعة والرفه ولم يكونوا ليقفوا عند حد محدود من الترف (لا) بل لامندوحة من الغلو فى قلب طورهم الابتدائى قلبا حسياً قد لا يكون على وفق ماتقتضيه نواميس الطبيعة في العمران : تراه قد كان يأوى من مبدء نشأته الى بيوت من جلود الانعام يستخفها يوم الظعن والاقامه فاذا عرضت له بارقة مادية وراء حاجته الاصلية نسي مبدءه أوتناساه واستخدم ماعرض له فى تخطيط قصور شامخة وربما بنى بيتا من الصخر ليناطح به السماك الاعلى (ان الانسان لظلوم كفار) حسن هذا وان كان لايخلو عن رزيلة ولكن التأنق في كل شيء الى حد غير مألوف من أكبر عوامل الخطر على الاخلاق التى هى

مناط نظام الكون فيتجلى الخراب من حيث يكون الغلو فى العمران انه بقدر ما يقرب الناس من المدنية الحديثة المصطلح عليها فى عرفهم يقدر مايبعدون عن روح الدين يسعى المتمدين ولو بطريق التقليد فى زخرف لباسه وتشييد مسكنه والتفنن في طعامه وشرابه بما لا يدخل تحت متناول قدرته المالية وفاء بحق التظاهر الموهوم ! يدع نفسه تائها فى أودية هذا الضلال المبين باسم المدنية فلا يلبث الا عشية أوضحاها ويصبح فاقدا للحياتين الحياة المادية والحياة الأدبية يستمر سائرا بعوامل نفسه بما انطبع عليها من ملكات السوء فاذا تيقظ من نشوة سكراته وأخذ يزن الأمور بما يجب ان توزن به أدرك سر أمراضه وكيف يكون الدواء اليها . . انه ليسؤنى ان أصرح بأن امراض المسلمين فى مدنيتهم الحاضرة التى يحرجون بها صدورهم ويضاعفون بها فقرهم ويخرّبون بها بيوتا أذن الله ان ترفع وعندى ان مدنية تذهب معها المروءة وتنتهك فيها الحرمات وتتقطع معها الصلات وينضب معها ماء الحياء وتسود بها وجه الانسانية وتهوى بأهلها الى هاوية من التقهقر المادّى والادبى لهى الوحشية بكل معانيها ان المدنيـة الصحيحة فى الطمأنينة والسكينة وما كنت لتجد متمدينا هادئ البال مطمئن الفكر بل تجده فى عالم من الغيبة عن نفسه وهو حاضر معها بغلافه الجسمانى وكيف لا يغيب عن الوجود وهو حاضر فيه وقد نزعت به عوامل الترف الى عالم جديد لم يكن لينشأ فيه وللنفس ألفة بما طبعت عليه والمدنية سلطان فوق سلطان الفطرة على ذوى الامزجة الضعيفة ومن خرج بنفسه عن أصل فطرتها وحملها من الأثقال فوق ماتحتمل وفاء بحق المدنية فقد شذّ عن قوانين الله فى العالم لان العبد

مسخر لنفسه فيما ندعو اليه مصلحته وعلى وفق ماتقتضيه طبيعة العمران : هذا هو أساس الاعتلال في الاخلاق وللناس في تشخيص الدواء مذاهب على اختلاف مشاربهم ونزعاتهم وليس من شأني ان أمخر عباب بحار هذا الخلاف الطائل وانما الدواء عندي يرجع الى عوامل ثلاث

(العامل الأول) ان تكون الهيئة الحاكمة شرعية محضة أى ان تكون السلطة كلها للدين فتقام الحدود على المجرمين بنسبة جرائمهم على النحو الذى وضعه الشارع بحيث يكون القاضى حكيما متصرفا قادراً على تطبيق الاحكام واستنباطها بفهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ان البلد الذى يسكنه الملايين من المسلمين يجب ان تتوحد السلطة فيه للشريعة الاسلامية

ومتى توحدت السلطة وكانت حقا مطلقا لدين الله الحنيف سلبت الامة حريتها الشخصية التى هى رق فى المعنى وما هذه الحرية التى تبيح للافراد ان يكونوا فى بعضهم كالبهائم يتصارعون ويعملون مايشتهون من غير رقابة عليهم ولا محاسب يحاسبهم على سوء أعمالهم المخجلة المريعة حتى وانك لترى المرأه تتخذ لها مكانا مكينا فى مجلس العاهرات على مرأى ومسمع من أبيها وزوجها وأخيها وليس لواحد من هؤلاء حق السلطان عليها فيمسكها فى بيته ليعاقبها على ماوضعت به من المروءة العربية والشرف الدينى لما بيدها من ذلك السلاح القاطع وهو مايسمونه بالحرية الشخصية

لست أدرى كيف راجت بضاعة الخمور والميسر فى بلاد الاسلام وكيف كان للمرأة المسلمة أو المتدينة بأىّ دين سماوىّ ان تتخذ لها مقعدا من مقاعد الفجور باسم الحرية حتى اختلطت الانساب وضاعت الحقوق

وأصبح الكبير لا يعرف للصغير حقاً ولا الصغير يرعى للكبير عهداً فرحم الله الحرية ورحم الله الاحرار

ان الحرية الصحيحة فى عصمة الحقوق عن اغتيالها والخلط فيها لافرق بين حقوق الله وحقوق العبد وقد يكون لله حق فى حق العبد كما يكون للعبد دخل فى حق الله وذلك كله لاسبيل اليه الا بتعليم الناس معنى الواجب فينصرف كل الى ماهو من شأنه ان ينصرف اليه

(العامل الثانى) ان يظهر فى الأمة علماء أكفاء قادرين فوق علومهم الدينية على صناعة الكتابة وفن الخطابة حتى يكون لديهم من قوة البيان كتابة وخطابة مايسحرون به قلوب العامة فى سبيل هدايتهم وارشادهم الى دينهم فان سياسة الناس فى أمور معادهم ومعاشهم تحتاج الى كثير من الحكمة فى الخطاب وليست الكفاءة العلمية وحدها كافية بل لابد لهم مع ذلك من خلق رئيسى هو دعامة وصول الدعوة الى آذان السامعين ذلك هو وجوب أن يتعالوا بأنفسهم الى مكانة العلماء القانعين بما فيه سد حاجتهم من اعراض الدنيا حتى اذا ما استغنوا بما عند الله عما عند الناس ولم يبيعوا ماء وجوههم في تحصيل عرض نافد ويضعون مكانتهم الروحيه ليأخذوا من وراء ذلك اصدافا من النحاس وجدوا من المؤنة فى ذلك مايشد عضدهم فى سبيل الدعوة الى دين الله على النحو الذى أمر به الشارع

ان الصبغة الدينية لها تأثير على اخلاق المجموع فى كل أمة لانّ سلطتها مستمدة من الله تعالى وما كان ينطق عند الله في حكمه بين الناس فأجدر به أن يوضع نفسه فى مكانة الخلفاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والا كان سهما على الاسلام وباء على المسلمين

ان مكانة العلماء فى الجمعيــة الانسانية لها سلطان على القوى الروحية فيجب حينئذ أن يكونوا محلا للوقار عنوانا للفضيلة بما يتخلقون به من أخلاق صاحب الشريعة الاســلامية وعندى أن من يتردى بثياب النفاق والتملق ليدنو بهذه المؤنة لعظيم من العظماء لتحصيل غاية من غايات النفس فلا أقول انه فارغ من العلم والفضيلة فقط (لا) بل هو ولا ريب انسان على ضرب من التسامح لأن النفاق مصدره الجبن . وقد أجمع علماء الأخلاق على أن الجبن لا يتفق مع الانسانية الصحيحة

نقول ان وجود علماء أكفاء فى الامة وترفعهم بأنفسهم عن سفاسف الامور لمن أكبر العوامل في سبيل علاج أمراضنا الاخلاقية ولكن يا لله فقد انقضت تلك الطبقة التى كنا نتوسم ويتوسم الناس فيها الكفاءة التى تعطيهم من القوة مايساعدهم على العمل لعز الاسلام واسترداد مافقده المسلمون من ذلك المجد القديم (كفضيلة الامام المرحوم الشيخ محمد عبده) والفيلسوف المنطق الكبير الشيخ محمد أبي خطوه وغيرهما ممن لم أدركه من أئمة الدين الذين قد رحلوا من الحياة الدنيا بأجسامهم ولم يرحلوا عنا بمكانتهم الروحية الكبيرة ولم يبق الآن تحت سماء مصر ممن يفخر الاســلام والمسلمون به على ما أعتقد الارجلان (الاول منهما) (فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ حسونه النواوى شيخ الاسلام ومفتى مصر) ولست أريد أن أذكر الامة بما هى ذاكرة له بمواقفه العديدة وهذه مسألة الحجج والمحكمة الشرعية والأزهر مازالت روحها ترفرف على رؤس العالم الاسلامي وتنطق بذلك المجد الذى قد سجله لنفسه في بطون التاريخ بما آثره من حق الجماعة على حق نفسه في هــذا القرن الذى قد تعاون الناس فيه على قبر الفضيلة باسم

الدين قبراً عمليا . . . ان للحق في كل زمن أنصاراً وللباطل آخرين ولداعى الدين سلطان قد يثقل بقلوب أهل الباطل لتتوحد فى المبدأ مع قلوب أنصار الحق لذلك لم يكن ليشذ أحد من الامة عن الاشتراك فى الاحتفال بمواقف ذلك الرجل الجليل وقد ساعدنى الله بمنع العوائق فكنت من المحتفلين بتقدير تلك الروح الكبيرة وألقيت خطابا ضافيا (راجع الجريده فى يوم الاحد ٣٠ محرم سنة ١٣٢٧ و ٢١ فبراير سنة ١٩٠٩) و (الثانى) (الفيلسوف الحكيم الشيخ محمد حسانين العدوى مدير التعليم الدينى العام) ولا أكون مبالغا اذا قلت ان هذا الرجل هو الفرد القدير على فهم كتب الحكمة وتفهيمها لطالبيها واني لأرى فى شخصه كما يرى غيرى مثالا من فقيد الاسلام (الامام الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده) فى جميع اطواره «كالشهامة» «المروءة» «النجدة» «الحكمة فى القول» «الاصالة فى الرأى» «وزن كل شىء بما يجب ان يوزن به» «العمل للوصول الى النتائج بأقرب مقدماتها الصحيحة» «الاعتماد على النفس» بعد مراعاة التوفيق الالهي «الحكم ولو على نفسه بما يقضى به قانون العدل» «احتقار كل غرض فى سبيل احترام النفس» ومن كانت هذه أخلاقه فهو حقيق بالاحترام والاجلال

(العامل الثالث) ان تكون الهيئة الضابطة من نخبة أبناء الامة الذين قد تغذت أرواحهم بألبان العلوم الدينية ودرسوا شيئا من العلوم الكونية درسا صحيحا كعلم الحقوق والحربية ونظام الادارة وغير ذلك من العلوم العالية التى توطد أنفسهم على مبادىء الشرف والفضيلة وحب المروءة لان الجندى اذا أدرك قيمة مركزه الاجتماعي صرف كل قواه فى سبيل ان

تسود الطمأنينة بين الافراد واذا كبرت النفوس وتعالت الهمم استحالت الاجسام أرواحاً .. ألجندية وظيفة خطيرة وهي أساس السلطان فى كل أمة فيجب أن لا يستهان بها استهانتها فى هذه البلاد الشرقية عند كثير من القوم حتى أصبح لا يتقلدها إلا أبناء الطبقة الثالثة ومعلوم أن هؤلاء لم يكونوا ليتعلموا من النظام العسكرى الا بقدر ماينظفون به أحذيتهم ويضيقون به لباسهم ويتحركون به كما تشاء تلك الكليات العسكرية الموضوعة للحركة لا كما يشاؤون « وللتماثيل المتحركة شبه ارادة عنهم » فكان لوظائف العسكرية من المكانة بنسبة ما للمتقلدين بها وكل منصب لا يأخذ معنى السلطان والغلبة على المسلط عليهم الا اذا خرج عن حيز الابتذال الى الغرابة وجلت غايته عن أن تكون متناول المجموع لافرق بين وضيع القوم ورفيعهم سنة الله فى الخلق ولن تجد لسنة الله تبديلا

ليست التبعة في ذلك على الحكومة وانما المسئولية كلها على الامة فترى الاغنياء يشترون أبناءهم من وظائف العسكرية وهى أصل من أصول دينهم وترى الفقراء يبكون وينوحون ونساءهم يندبن على الطبول اذا استدنت الحكومة أبناءهم للدفاع عن حرماتهم أولئك الذين اشتروا بعهد الله ثمنا قليلا فضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم فى الآخرة هم الأخسرون ولو أحسنت الحكومة لسدت باب العوض وجعلت وظائف العسكرية جبرية كما هو موجود فى كثير من الامم التى لم تكن متدينة بدين الاسلام وحضرت لذلك من الطبقة العالية المتعلمة ماتقدر مسئولية القيام بهذا الواجب الاجتماعى

ان من استقرأ أطوار (البوليس المصرى) أدرك قيمته الاخلاقيه وان

نسبة الفاضل فيه الى المفضول لاتزيد عن نسبة واحد فى المائة على اننى قد نظرت كثيراً بنظارة معظمة فى طبقات تلك الهيئة النظامية تدريجا من أدنى الى أعلى وكنت أتخذ بيدى بعض المصابيح فى رابعة النهار لاهتدى بقوة الضوئين (الطبيعي والصناعى) الى مايخلق فى نفسى شيئا من الامل والرجاء برجالنا الأبطال .... فلم أكن لاهتدى بعدهذا الاكتشاف الطائل الا الى رجل واحـد كانت تحول بينى وبينه حجب العقيدة العامة (بالبوليس) ومن هوهذا الرجل ؟ ذلك هوصاحب السعادةالنظامى الكبير القائمقام (محمود صدقى بك حكمدار بوليس مدرية البحيره) من أعمال القطر المصرى تربى هذا المفضال في مدرسة لم يكن ليتربى فيها غيره من معاصريه (وهى مدرسةالحياة العملية) بعدأن تخرج من ربوع العلم .: تناوبته فى مراكزه التى كان يشغلها فى حكومة الجناب العالى أطوار متباينة وأخذت تنتقل به سنةالترقي من ضابط الى (حكمدار) من الدرجة الأولى فى ظرف لم يعهد له نظير فى تاريخ غيره من معاصريه وما كان ذلك الا لما هو عليه من فضيلة الاقدام وثبات العزيمة والصدق فى القول والاخلاص فى الفـعل حتى أحاطت به عناية مولانا العباس كما هى سـنة سموه من تقدير العاملين فى حكومته السعيدية وتشجيعهم بانعاماته الملوكية وتعطفاته السامية فلو كبرت نفوس الهيئة النظامية وتغذت أرواحهم بعلوم الاخلاق وأخذوا قسطهم من دروس الحياة العملية بقدر ما أخـذ (صدقى بك) لحاسبوا أنفسهم حسابا عسيرا على القيام بواجب مهمتهم التى هى أساس المنعة وعليها يقوم سلطان الدولة ولكنا أرقى الامم من الوجهـة النظامية العسكرية . . هـذه هى العوامل الثلاث التي اعتقد انها الدواء الوحيـد

لعلاج أمراضنا الاخلاقية . وسنأتى عقب هـذه المحاضرة بشرح المدنية بتحديدها وبيان أقسامها ليعلم المتمدينون بالمدنية الحديثة نسبتهم الى المدنية الصحيحة نرجو الله ان يلهمنا وسائل العمل لما تقوى به شوكتنا ويسود به سلطاننا فبه الاستعانة وعليه التوكل وليس الا به الحول والقوة

المحاضرة الثانية (١)

﴿ في بيان تحديد المدنية وأنّ الفضل فيها على أمم العالم للاسلام ﴾

للناس فى تحديد ماهية المدنية مذاهب يصح ان تكون موحدة المنطوق متحدة النسبة وان تعددت فى مفاهيمها الاعتبارية فذلك انما هو في نظر الساسة من علماء الاخلاق ولم يشذ أحد من الحكماء فى انها محض الاجتماع الانسانى المعبر عنه في اصطلاحهم بالعمران والمدنية بهذا المعنى شرط في بقاء الحياة القوميــة وعامل كبير فى انتظام الصفوف الاجتماعية فالانسان من حيث هو فى ذاته مدنى بالطبع لا مسيحى « أومسلم » بقاء كل فرد ضرورى فى بقاء الآخر يستمد هذا حياته من ذاك بما تدع اليه حاجته التى لاسبيل الى صيرورتها كونا فى الوجود مقوما لحياة الافراد الا بعد أن تتناقلها أيد كثيرة تزاول كل واحدة من العمل مالم تزاوله الاخرى حتى يتكون بفعل الجماعة ماهو ضرورى التكوين فى بقاء حياة الفرد

---

(١) نشرت هـذه المحاضرة فى اللواء وفى مصر الفتاة بتاريخ يوم الاحد ٣ رجب سنة ١٣٢٨ و١٠ يوليه سنه ١٩١٠ لغرض الرد على الاستاذ (المسترسكوت) فى رميه الاسلام بأنه دين خرافه

بهذا اقتضت سنة الله فى العالم ان تكون روح الاجتماع متواطئة فى حاجتها حتى يتقرر فى كل نفس لشريعة الوفاق داعية الاخاء الانسانى

تضامن «طبيعي» وفاق «مدنى» إخاء «ووفاء» تشريك «فى البقاء» تقارن فى الخيال دعت اليه ضرورة الحاجة الى الحياة لا ينكر جسمه المحسوس أو يعمل على انسلاخه الا من تنازعته عوامل الهوس والهذيان أولئك الذين اشتروا بعهد الله فى سنة نظامه ثمنا قليلا فسلبوا أنفسهم بأنفسهم ما كان لها من قسطها الانسانى

هذه آداب الاسلام قد أشرقت شموسها على العالم فى الليل القاتم فشرعت الوفاق والاخاء بين النوع الانساني من حيث انه انسان وخاطبت العقول واستنهضت الافكار وادعت وبرهنت ونادت النازعين الى الضلالة المنحرفين عن الهداية بالحسنى الى روح الفضيلة والتوحيد ... سلام يدعو به الاسلام أمس بحال السنن الطبيعية وأحوج بقوام النواميس البشرية تشريع ليس فيه من الخرافة الا دعوة الناس كافة الى معبود واحد (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) حكيم يدعو الناس الى ماهو أمس بمصلحتهم بالحسنى (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن)ولست أعنى فى كلمتى ان أصف طود المدنية التى قد شاد صروحها الاسلام حتى انبسطت أشعتها على العالم فى كل بلاد الدنيا وقام أهل البادية لما نزل بأنديتهم نور هذا العرفان يعلمون الناس دروس الحضارة ويقودونهم الى النظر فى الكائنات بعد أن لبثوا فى صومعة الجهالة حينا من

الدهر طويلا وانما الذى أغمز البنان فيه هو الاشارة الى قليل من أصول الاسلام والاخذ بنظر أولئك النزلاء الاوروبين الذين يفدون على البلاد الشرقية ثم يستقرئون بتجولهم فى القرى والامصار أخلاق العامة ويصدرون أحكامهم العدوانية على الاسلام بما هو براء منه أخذاً من فعل ذلك النفر الجاهل من المسلمين ولو أنهم علموا أن كل أمة على ظهر البسيطة لاتخلوا من ذلك الصنف الساذج البسيط أو المبتدع الذى لايعرف من الدين الا اسم الدين لما انهالوا مع تيار نفوسهم في استصدار أحكامهم فيرمون الاسلام بالخرافة تارة وبالجمود أو الوحشية أخرى من ذلك الصنف (جناب الاستاذ المستر سكوت) يحكمون مايحكمون والله غالب على أمره

الرجل الاوروبي فى أطواره ليس خلقاً آخر مباينا لتكوين الشرقى بل انسان الغرب هو انسان الشرق وانسان الامس هو انسان اليوم ولا فضل الا بالعلم ولا تفاضل الا بالاعمال

فمنه الذكي والغبي والعالم والجاهل والظالم والعادل عوارض طبيعية سنة الله فى الخلق وبتباين نسبتها فى ذويها تتباين أحكامهم علما وجهالة ... لست أريد الا أن آخذ بنظر أولئك الى ما أنقله لهم من أصول الاسلام وأستعيره من أخلاق المسلمين الذين انطبعت أحكامه فى تكوينهم واليك ما كتبه عمر بن الخطاب الى أبي موسى الاشعرى عامله بالكوفة فيما يتعلق بالقضاء الشرعى قال مانصه :

أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له وآسى بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك حتى لايطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة

على من ادّعى واليمين على من أنكر والصلح جائز الا صلحا أحل حراما أو حرّم حلالا

ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك واهتديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق فان الحق قويم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها الى ان قال واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فان استقرار الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر والسلام تلك هى أخلاق المسلمين التى يصح ان يتخذها الناظر حجة على الاسلام أحكام جمعت من آيات المدنية وأصول السياسة ومبادئ السعادة وكرم الاخلاق وضروريات الاجتماع ما يأخذ بالكون من هوة الخراب الى عالم العمران

ولقد حصر الحكماء السياسة فى ثلاثة أقسام سياسة مدنية وتلك هى التى سموها بالاجتماع الانسانى وهى معروفة للانسان بمقتضى طبعه وما يلتمسه من الحاجة التى لا سبيل لها كما قلنا الا بمزاولة كثير من الافراد القسم الثانى السياسة العقلية وان شئت فسمها (بالارضية) وتلك هى ما كانت موضوعة بفعل الانسان من القوانين الارضية التى لم تتجاوز أحكامها ما يتعلق بالانسان فى حياته الاولى . أما القسم الثالث وهو ينبوع السياستين والجامع لمصلحة الانسان فى الحياتين فذلك هو السياسة السماوية وسنأتى على تفصيله فى الكلمة الثانية مع الاشارة الى الحكمة فى وضعه ومبلغ نسبته فى مصلحة الانسان بجانب غيره وليس الغد لناظره ببعيد

المحاضرة الثالثة (١)

﴿ في تفسير قول الله (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر الآية) ووجه تقرير الشارع هذا النوع من الدعوة ﴾

(ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)

« قرآن شريف »

ماقرر الشارع هذا النوع من الدعوة بالخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الالما ىراه ينجم عن الفساد فى الارض من سرعة الخراب والتقهقر بالعمران بمؤثرات ذلك الوباء الفاتك بالارواح القاتل للعقول . النزوع الى الرذيلة شر والجمود أمامها وعدم مصادرة تيارها اقرار لها والانسان مع كونه مدنيا بالطبع أى لابد فى بقائه من ضرورة الاجتماع الانسانى ففيه باعتبار فطرته سلطتان متنازعتان سلطة العقل وسلطة النفس وتغلب الأولى على الثانية قليل فهو أكثر عدوانا على نفسه وغيره لذلك كان لابد له من وازع يقف به عند حد المصلحة في كلتي حياتيه الأولى والأخرى فالحكمة فى نصب الوازع ترجع الى عاملين عظيمين ضرورة الاجتماع وكون الانسان أنزع الى الشر منه الى الخير ويجب أن يكون هذا الوازع عاملا فى سياسته

(١) نشرت هذه المحاضرة فى مصر الفتاة بتاريخ يوم الجمعه ١٥ رجب سنة ١٣٢٨ ٢٢ يوليه سنة ١٩١٠ الحاقاً للرد على الاستاذ « المستر سكوت »

على وفق ماتقتضيه طبيعة العمران — من أجـل ذلك وضعت الشرائع الالهية وهذاهو القسم الثالث الذى سميناه فى الكلمة الأولى بالسياسة السماوية

يرجع الناظر بصره كرتين فى كل قانون من قوانين العالم فى الارض فيجدها ناقصة أمام ذلك التشريع الأعلى وما فيها من حكمة فى وضع حكم فليس لها ينبوع سواه أخـبرنا التاريخ بما كان للامم والاجيال فى القرون الاولى من المعتقدات وانها كانت تتباين بتباين نسبة العلم تقدما وتقهقرا

فمرة عبدوا السحاب والجبال وآونة عبدوا النجوم والانهار وتعددت معبوداتهم بقدر نسبة معلوماتهم حتى نزلت الديانات الالهية فتناوبتهم الى أن جاء الاسلام وكان يجمع العالم يومئذ دولتان دولة الفرس ودولة الرومان وما كان الناس أمة واحدة دماء مسفوكة . وحرمات منتهكة . ووثنية ممتنقة . ورق سائد فانتقل بهم من مضيق الجهل والوحشية الى متسع العلم والمدنية ورفع بأنديتهم من حضيض الخراب الى أوج العمار قام بينهم حكيما فداوى سقيمهم من الامراض الدينيـة والدنيوية وكان يقرعهم في الدعوة الى الله بالحجة ويناضلهم بالبرهان ويسفه أحلامهم فى معبوداتهم بقولهم (انا وجدنا آباءنا لها عابدين) قال جلت عظمته (أولو كان آباؤهم لا يعـقلون شيئا ولا يهتدون) (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) تـكليف صريح بالنظر فى ملـكوت السموات والارض يراه الناظر حجة قادحـة في طعن أولئك المعتدين الذين يرمون الاسلام بالجمود واحتباس النظر عن العلم وانزوائه عن البحث في ادراك الـكائنات وما لهم بذلك من علم الا اتباع الظن (والله فوق مايظنون

وقد يحتج صنف آخر بجمود بعض المسلمين الذين قد نبذوا الاسلام وراءهم ظهريا فلبسوا ثياب البدعة ونزعوا الباس السنة فباؤا بغضب من الله وأطفئت في وجوههم مصابيح الحياة كما نبذوا من الحق وأصبحوا مثلة أمام الامم يتخبطون في البدع والضلالات وما كان لهم من دون الله من ولي ولا نصير ولو أنهم علموا أن الامم الغربية ما انتقلت من طور الى طور الا بذلك الشعاع الذى سطع على أنديتهم من آداب الاسلام بشهادة حكماء الغربيين أنفسهم لما انزووا عن العمل بأحكام دينهم فى زاوية بدعهم وضلالتهم تراهم في دين الله فرقا وشيعا فهذه طائفة على طريقة البيومى مثلا تذكر وتصيح وتلك طريقة كذا تأكل المصابيح وما كان البيومى أو الرفاعي ليتفرق في الدين (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)

لم يقف الاسلام عند حد الامر بالعلم بقوله (هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) وقول الشارع (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) بل عظم العلماء ورفع مكانتهم فوق الملوك والامراء وجعل لهم الوراثة بعد الأنبياء (ان الذين أوتوا العلم لهم درجات عند ربهم) كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء وما كان ذلك الا للترغيب في الورود على حياض العلم والاستقاء من فيض سحابه ذلك لانه أساس العمران والمدنية في كل أمة

حظر الاسلام كثيراً الظلم والجور فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) ذلك لأنّ العدوان على

النفس والاستيلاء على الاموال مما يبعث اليأس في القلوب ومن ثم يتدرج الخراب الى العمران شيئا فشيئا وبطبيعة هذا الخراب ينقض بناء الجامعة البشرية بانقضاء الانسان

لذلك كان الاسلام أشد حرصا على انتشار روح العدل بين الافراد ليكون ذلك حفاظاً لبناء صرح المدنية التي هي مبدأ السعادة وملاك التقدم العمراني

وقد كان المسلمون في الصدر الاول يتواصون بهذه الاحكام لانهم أدركوا السر في تقرير الشارع لها وعلموا أنها الاساس المفرد في بقاء الملك والسلطان

ولقد كتب طاهر بن الحسين الى ابنه عبد الله بن طاهر الذي كان والياً على الرقة ومصر رما بينهما كتابا جمع فيه من آيات الحكم الاسلامية ماتعرف منه أخلاق الاسلام ومبلغ المدنية فيه وكيف وضع للعالم من السياسة ما كان فيه الضمان لسعادتهم في الحياتين قال بعد كلام طويل مانصه (فان الله سبحانه قد أحسن اليك وأوجب الرأفة عليك ممن استرعاك أمرهم من عباده

وألزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم ومؤاخذك بما فرض عليك

وموقفك عليه وسائلك عنه ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل منه

واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد وآثر الفقه

وأهله الى ان قال (وعليك بالاقتصاد فى الامور كلها فليس شئ أبين نفعاً ولا أخص أمنا ولا أجمع فضلا منه والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد الى السعادة

وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد

والتمس الوسيلة الى الله في الامور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فان إيقاع التهم بالابرآء والظنون السيئة بهم إثم فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعنك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم

المحاضرة الرابعة (١)

﴿ فى تفسير قول الله تعالى (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل) (الآيه) وتتمة كتاب بن الحسين

(ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) يندهش الناظر اذا ماوعى أسرار ماجاء فى هذه الآية من كتاب الله فبعد أن أخذ بتلك النفوس الفارة وحولها اليه بعبارة النداء وآنس منها الاقبال على سماع خطابه وجه اليها

(١) نشرنا هذه المحاضرة في اللواء بتاريخ يوم الاحد ١١ شعبان سنة ١٣٢٩ ٦ اغسطس سنة ١٩١١ الحاقا للرد الاول

من الحكم مايجمع قلوبها المتنازعة وميولها المتباينة . ذكرها بالمصدر الرئيسي الاول من مصادر عوامل الحب الذى هو ملاك الخير فى الامم وأس السعادة وقوام الحياة وينبوع الفضيلة وأستاذ الوجدان ومهذب الاخلاق له من الدروس الحكمية مايصير الجماد عالما آخر يسابق في ميادين الحياة ذكرها بذلك المعطف الشريف لينخذل أمام شوكته وسلطانه عامل الفشل والخراب ولم يبق بعد ذلك ولا ريب إلا أن يسود العمران

خاطب تلك العقول الجافة برابطة الاخاء وما يتولد عنها من عاطفة المحبة الطبيعية المقتضية للجماعة الداعية الى الخير الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر فقال (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) ثم عقب ذلك بقوله (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) (لا لتنابذوا بالالقاب ولا لتفاخروا بالانساب (كلا) بل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم أى أعلمكم وما كانت التقوى إلا بالعلم) فاهدنى بربك الى المدنية الصحيحة اذا انت كنت ناقما على المدنية فى الاسلام

بعث المعصوم وكان العرب فى الجاهلية أشتاتا سحب عليهم ليل الجهالة بأغطيته المتكاسفة فعموا عن الطريق وصموا فتباينت أهواءهم وتفرقت مشاربهم وانفصمت جامعتهم فتبعثرت كلمتهم وتدرج الى الكل بحكم عامل الفشل وبطبيعة الانقسام فى الاهواء آفة الخمول والوهن وحب الكمون فى كهوف الوحشية فكانوا بطبائعهم أبعد الامم عن الملك وسياسته لانهم فرادى فى أمانيهم نصراء الخراب فى أماكنهم وهو يدعو الى الجماعة والغلبة وتوحيد الغاية فى تشييع أفاعيل النفس وما كانت لتجتمع قلوبهم بعد تفريقها وتتحد كلمتهم بعد تمزيقها الا بقوة سلطان قاهر قال جل وعلا « لو أنفقت

مافي الارض جميعا ماألّفتَ بين قلوبهم ولـكنّ الله ألّف بينهم »

حبك الشيء مما ينسيك نفسك — تغيب عن الوجود وأنت فيه ... واذا تواطأت النفوس على إرادة أمر توجهت عنايتها موحدة اليه فيكسبها ذلك قوة فوق قوتها ومن ثم ينخذل الباطل وإن كثرت أنصاره أمام الحق وان قل ناصروه ولذلك كانت الصبغة الدينية ذاهبة بالفشل آخذة بالمتمسكين بروح الحق الى أوج السعادة والفلاح ولقد تواترت الروايات بان جيوش المسلمين فى واقعة القادسية واليرموك كانت بضعا وثلاثين ألفا فى كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفا ولم يكن ليقف تيار هذه الكثرة أمام تلك القلة — من أجل ذلك نقول إن الاسلام دين الحضارة الصحيحة والمدنية الفردية . سلام من الاسلام قد سطعت شمس معجزاته على تلك القلوب المظلمة فأنارتها حتى كانت الحرية بعد الرق والامن بعد الخوف والمدنية بعد الوحشية والكثرة بعد القلة والسعادة بعد الشقاء »

لاعجب اذا كان النصر فى القلة والخذلان فى الكثرة لأنه الحق له من السلطان والقهر مايعلو على كل سلطان في الوجود .. ندع هذا وننتقل بالناظر الى نظرة عامية أخرى

قسم العلماء المصلحة أخذاً من القانون الطبيعى للانسان الى ثلاثة أقسام ضرورية وحاجية وتحسينية أما الضرورية فهي التى بحكم طبيعة بقاء العمران انتهت الى حد الضرورة إذ لا سبيل لحياة الافراد ونظام العالم الا بها ومرجعها على ضرب من الحصر الى خمسة أمور كلية (أولا) دوام حفظ الدين وقد شرع له الجهاد (ثانيا) حفظ النفس وقد شرع له القصاص (ثالثا) حفظ المال وقد شرع له حد السرقة (رابعاً) حفظ النسب وقد شرع له حد

الزنا (خامساً) حفظ العرض وقد شرع له حـد القذف واما المصلحة الحاجية فهى التى يحتاجها الناس فى معاملاتهم ولم تبلغ بها الحاجة حـد الضرورة كالبيع والاجارة فالأول محصل للملك للانتفاع بالمبيع والثانى محصل لحق الانتفاع بالمؤجر

بقيت المصلحة التحسينية وهى التى روعي فيها سر تربية الاخـلاق وتقويم الأنفس بما ينطبع فيها من الملكات الشريفة

وانمـا الأمم الاخـلاق ما بقيت فان همو اذهبت أخلاقهم ذهبوا

هذه هى المصالح التى لا ريب فى أنها روح السعادة فى الامم وشطر كبير فى ماهية الكائنات يشهد بذلك ما خلق فى تكوين الانسان من الوجدانيات التى يشعر بها فيـدرك اللذة والألم والشرف والضعة والـكفر والأيمان والموت والحياة .... أحكام لم يدع الاسـلام منها فتيلاً الا عقـد له أبواباً وفصولا ولـكن القوم استحبوا العمى على الهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ... فقل لى بربك هل يتفق مع تشـريع هذا شأنه ان يكون مجموعة خرافة أو خلاصة وحشية كما يرميه بذلك كثير من المسرفين أظن ان الجواب مخجل وما كان من أخلاق هذا الدين الا التسامح (وإنما الذكرى تنفع المؤمنين) ولقد استعرت فى المحاضرة الثالثة كلمة من الحكمة من كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبدالله بن طاهر ووعدنا القرّاء بالبقية وهذا نص ما اخترناه مما جاء فيه قال بعد أن أمره بحسن الظن بأصحابه ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك أو الرأفة برعيتك أن تعمل المسألة والبحث عن أمورك وحياطة الرعية والنظر فى حوائجهم وأقم حدود الله فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم ولا تعطل ذلك فان فى تفريطك ما يفسد عليك حسن ظنك

واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رأيك واظهر براءتك من ذلك لرعيتك وانعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وإياك أن تقول أنا مسلم أفعل ما أشاء فان ذلك سريع الى نقص الرأى وقلة اليقين بالله عز وجل ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم واعلم أن الأموال اذا اكتنزت فى الخزائن لا تنمو واذا كانت فى صلاح الرعية واعطاء حقوقهم ورفع الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة وترتبت بها الولاية وطاب بها الزمان

المحاضرة الخامسة (١)

﴿ فى أن العمران لا يقوم الا بالإخاء والعمل ﴾

ألقيت هذه المحاضرة فى نادى المحاضرات وقد حضر لسماعها الجماهير من العلماء والعظماء بعد أن أعلنت عنها الجرائد السيارة مسيحية واسلامية وها هى بنصها ...

أيها السادة :

لقد اخترت ان يكون موضوع هذه المحاضرة مقصورا على تلك

(١) نشرت هذه المحاضرة بعددين متتابعين من الجريده « ثانيهما » عدد ١٤٧٩ وأعلن عنها بعض الجرائد قبل القاءها و بعده قال اللواء بتاريخ يوم الاربعاء ٢٧ محرم سنة ١٣٣٠ « سيلقى بنادى المحاضرات بشارع الصنافيرى بعابدين محاضرتان جليلتان

المسألة الحيوية الكبيرة التى عنى بها علماء التشريع فى الاخلاق

تلك هى ان الاخاء الانسانى والعمل ضروريان فى بقاء العمران .

أيها السادة :

يبعث الناظر نظره في أداب الشريعة الاسلامية فيرى ان مهمة الشارع ترجع الى قضيتين أساسيتين أورئيستين (تحرير العقول من رق الجهالة) وبذر روح المحبة والاخاء ذلك لانه بالقضية الأولى وهى (تحرير العقول من الرق وترويض الفكر بالنظر) يتولد توحيد القوة المصدرية التأثيرية وبالقضية الثانية وهى « ازدواج الارواح وتداخلها فى هيولة واحدة باسم سر الحياة القومية تحت شمس سماء اسم الانسان يتولد حب التعاون في الاعمال بحكم ضرورة افتقار كل جزء فى سبيل بقائه الى حياة الآخر »

أيها السادة :

من أنفس المحاضرات العلمية والادبية الاولى « فى الاخاء والعمل » (روح العمران) لحضرة الفاضل الاستاذ الشيخ محمد فراج المنياوي أحد نبغاء الازهر الشريف وذلك فى الساعة السادسة تماماً بعد ظهر يوم الخميس المقبل ١٨ يناير سنة ٩١٢ وقال المقطم بتاريخ يوم الثلاثاء ١٦ يناير سنة ٩١٢ يلقى حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد فراج المنياوى محاضرة في «الاخاء والعمل روح العمران» وذلك فى يوم الخميس القادم الساعة السادسة والدخول مباح « لطلبة المدارس العليا وغيرهم من العلماء والادباء » وقالت الجريده فى يوم الثلاثاء ١٦ محرم والافكار فى يوم الخميس ١٨ يناير ومصر فى يوم ١٦ يناير والوطن فى يوم ١٦ يناير سنة ٩١٢ مايستلزم مانشرته الجرائد الاولى بنصه وقد أدت هذه الاعلانات وظيفتها فلقد وفد على النادي لسماع المحاضرة المئات من رجال العلم وأهل الفضل .....

قررت فينا النواميس الطبيعية ميل الانسان بطبعه الى الانسان بحكم التماسك أوالتشارك الذى قررنا ونرى ان هـذا الربط أوالعقد الاجتماعى الانسانى مجسما برجوع أعلى رأس فى الوجود بأدناها فكل يمـدُّ أخاه بما قلده الله من العمل ومجموع الاعمال ضرورىٌّ فى بقاء الانسان . تلك سـنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »

اخوانى :

الجماعة كل أصلها الواحد والواحد فرد تتـكون منه الجماعة ومن ثم نعلم ان الفرد لايقوم الا بالجماعة وان الجماعة لاتتكون الا بالفرد وبيان ذلك أما كون الفرد لايقوم الابالجماعة فلماقررناه من افتقاره بمقتضى تكوينه الى مقومات متباينة الحقيقة والماهية يستحيل عليه عادة ان ينبغ فى مجموعها فضلا عن جميعها حتى يحصلها لنفسه بنفسه فيكون مثلا فلاحاً زراعا واماماً مرشداً وطبيباً ماهراً ولو كانت له هذه الوظائف المتباينة وحاول استقلاله بنفسه فى حياته لـكان مثـله فيها كمثل رجل في سفينة وقد تعددت عليه ثقوبها فكلما حاول سد ثقب كلما غمره الآخر ماء فلا يلبث يسـيراً يحاول سد الثقوب الا وتخونه الرياح العاصفة فينقضى خاسراً للحياة ضحية الفرقة عن الجماعة والاستقلال بالنفس فى مزاولة أعمال متباينة لاسبيل الى تصويرها الا بمزاولة افراد لافردا واحـداً . واما كون الجماعة لاتتـكون الا بالفرد فلان اسم الجماعة لايطلق عليها الا بعد تـكرر الفرد فالجماعـة هى الفرد المتـكرر المتحد الماهية المتفاوت فى العوارض الشخصية

من أجل هذا قررت القوانين الوضعية ان العدوان على الفرد عدوان على الجماعة ولعل هذا سرى الى القوانين الأهلية من الشرائع الالهية ولقد

أخذنا هذا الدرس الحيوي الكبير عن صاحب الشريعة الاسلامية بأوسع معناه قال (من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) قانون كلى يشترك فيه كل افراد بنى آدم في سبيل التحاكم أمامه وتخصيص بنى اسرائيل بالذكر لان التوراة أول كتاب جاء حافلا بالأحكام وشرائع من قبلنا شرع لنا مالم يردنا نسخ لاختلاف الزمان والمكان وتباين أطوار المخاطبين فى مصالحهم وأخلاقهم بتباين أطوار الجو صحواً وصفاء

ترى في ذلك السر من الأساس الاجتماعى مانسجت عليه القوانين الوضعية من أن العدوان على النفس الواحدة عدوان على الهيئة الاجتماعية ومن استنقذ نفساً واحدة كانت تحت خطر العدم فكأنما استنقذ الناس جميعاً وهذا هو معنى ذلك التشريع المحكم ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً أما من قتل نفساً بنفس فذلك هو القصاص الذى شرعه الله ليكون لنا فيه الحياة المقصودة . وكذا اذا كان القتل بفساد فى الأرض فذلك هو التأديب الذى شرعه الله لتلك النفوس العدوانية حتى اذا ماساد الأمن وعصمت الدماء قام النظام على أساسه المكين وكل ذلك من أكبر العوامل في بقاء العمران « ولكم فى القصاص حياة » « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » هكذا ترون التعاليم الاسلاميه تستنهض الفكر لتحرر الانسان بذلك من رق الجمود وتشدد النكير على النازعين الى الخلاف باسم الدين أو بعبارة أخرى باسم الاسلام أو المسيحية . ذلك لان

الله لاينظر الى الاسماء والالقاب وانما ينظر الى مضمراتكم الكامنة فى ضمائركم وأعمالكم الدالة على آثاركم ولم يكن ليقف فى باب تقرير الاخاء والتعاون فى الأعمال عند حد الفطرة بل جاء المشرّع الاسلامى وشرح هذا الدرس الحيوى وعلمهم بأن الحياة الانسانية هى محض التعارف والتعاون ومبدأ المحبة والاخاء وأن الفضل لايكون الابالعلم وأن التفاضل لايكون الا بالعمل « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون »
اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً

أيها السادة :

ما كان صاحب النظام ليحترم محض الاسماء من الاسلامية أوالمسيحية بل سم نفسك ماشئت أن تسمى وانما السعادة والشقاء منوطان بالعمل « ليس بأمانيكم ولاأ مانى أهل الكتاب من يعمل سوأ يجزبه » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم الى قوله وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما

هذا هو الاستدلال على المسألة من الوجهة النقليّه أوالطبيعية أمامن الوجهة العقلية فلأن الناس لولم يكونوا أمة واحدة وفقدوا جامعتهم القومية وكان هم كل فى اغراض نفسه البهيمية فلا ريب يتولد من وراء ذلك حب التصارع النفسى ويصبح مركز كل فرد أمام الآخر مهدداً بهذا الخطر المتفاقم ومتى سادت عاطفة التصارع الوحشية في أفراد بنى آدم وكان حظ كل فى حياته العدوان على مابيد أخيه فلا ريب يحل الخراب محل العمران لانهم عكفوا على أسباب استئصال الحياة بما تركوا من التشارك فى الاعمال

وبما نبذوا من الجامعة القوميـة التى هى أ كبر سفينة نجوز بها بحار الحياة المتلاطمة الامواج بل هى أ كبر أسطول حربى نتقى به شر ماتولده الايام من عجائب الحوادث ولو أنكم بعثتم أيها السادة نظرة من نظراتكم على أمم العالم أجمع وجعلتم مقارنة نسبية من الوجهة العملية لحكمتم بان سـعادة الامم وشقاءها سائران بنسبة التقدم فى الاعمال والتقهقر فيها ولقد كنت يوما أقرر هـذه المسألة الاجتماعية فى جماعة من الناس فقال بعضهم هاهو العمران قائم مع التفرق والخلاف والتقهقر فى الاعمال وما درى ان هـذا العمران عمران نسبي كما أنه خراب نسبي أى بالنسبة للامم المتكاتفة فى العمل المتسابقة في تشييد صروح الحياة ولما كان الانسان بطبيعته نازعا الي الشر وذلك لا يتفق مع المبادئ النظامية فى بقاء العمران

شرعت الحكومات فى الامم ووضعت القوانين المستمدة من الشرائع الالهية للرجوع اليها والوقوف أمامها عند التحاكم لانه لو ترك الناس من غير أن ينصب لهم وازع يحملهم على الفضيلة ويكفهم عن الرذيلة ويشرع فيهم شريعة الوفاق لعمت الفوضى وكثر التصارع وساد الفشـل فلا تلبث هذه الحياة بفضل هذا الوباء العدوانى وبحكم تلك الفوضى ان يأتيها أمر الله ليلا أونهاراً فيجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس

فالمشروعية الحكومات في الامم سر عظيم يرجع حول تقرير الإخاء والوفاق الذى هو الأساس الفرد فى بقاء صرح الجامعة الانسانية

ومن ألقى نظرة على الامة العربية وهى فى ربوع الجاهلية تحقق ضرورة الوازع الذى نعنون عنـه بالحكومات فى الامم وقيمة وظيفته من الوجهة العمرانية التى لا سبيل اليها الا اذا تربت فى تلك النفوس النازعة الى الوحشية

روح الإخاء الذى هو بشير السلام وأس السعادة

أخذ هذا الوازع يترقى بهم الى سماء العلم والعرفان حتى أصبحت الامة العربية بفضل تلك السياسة الالهية مشرق أنوار العلوم والمعارف وأخذت تفيضه على أمم العالم أجمع بشهادة حكماء الغربيين أنفسهم

قال الاستاذ «درابر» الامريكي الكبير في هذا الباب ماتعريبه بعد كلام طويل عن الامة العربية « هذا المركز الذى اكتسبه العرب وهذا الذوق السليم فى العلم استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت المملكة الى ثلاثة أقسام حتى ان العباسيين فى آسيا والفاطميين فى مصر والامويين فى اسبانيا لم يكونوا متناظرين متغايرين على الحكومة فقط بل كانوا كذلك على الاداب والعلوم » الى أن قال

وكانت قيادة المدارس مودعة لذوى المدارك الواسعة فكانت اما بيد النسطوريين أواليهود لان المسلمين لم يكونوا يتحرون عن جنسية العالم وديانته وما كانوا يزنون قدره الا فى أعماله هذا

وأراني أيها السادة قد خرجت بكم عن الموضوع والذى أرمي اليه انما هو الاستشهاد على المسألة بآبائنا وما سلكوه في الحياة من أساليب السعادة حتى أفاضوا على العالم أجمع بما جمعوا من الكلمة وبما نبغوا فيه من العمل ولو انا أخذنا أيها السادة عن الاسلام وهو ديننا بقدر ما أخذ الاوربيون عنه وهم عنه غرباء لكنا كما كانوا ولكان اصطلاحنا فى التعارف مقصورا علي ما كان عليه آباءنا في القرون الاولى أى أنا لانعرف الانسان الا باسم الاخاء الانسانى العملى

انقضت منا عاطفة الدين وانقضّ صرح الاخاء الانسانى وأصبحنا

نتثاقل بطبيعتنا عن العمل الا ماعصم الله وهو قليل ونجنح في كل اطوارنا الى ضروب التمني ليتي كنت وليتني كنت فترون صنفا من الناس فى عالم الخيال وما درى أن التقاعد نذير الفقر والشقاء وان العمل بشير السلام والسعادة أجل ليس الفقر فى ذاته عيباً وانما العيب ماتولد عنه الفقر ومن المبادئ الدمقراطية قولهم « ليس من العار عندنا أن يعترف الانسان بفقره وانما العار عدم مطاردة الفقر بالعمل » وقال بعض الحكماء لاتؤخر عمل اليوم إلى الغد فانك اذاذهبت هذا المذهب اجتمع عليك عمل يومين فتتزاحم عليك الاعمال ويضيق بك الظرف ومن ثمة يكون الفشل والتقهقر الى الوراء وقال بعض النظار من علماء الاخلاق إن حياة الرجل المتمسك بدينه تكون مفعمة بتهذيب النفس وكبح جماحها فتراه ينازل الشرور التى تفتك بالنفوس ويقاوم دعاة الضلال فى هذه الحياة الدنيا كذلك رجل العمل لابد له من أن يكون خاضعا لقانون دقيق ونظام محكم ذلك لان العمل والحياة تديرهما عدد أدبية والنجاح فيهما متوقف على نظام الطبع وتهذيب النفس وبهاتين الفضيلتين يكتسب الانسان السيادة على نفسه وغيره لان الحلم وضبط النفس يمهدان سبل الحياة ويفتحان أبوابا تبقى بدونهما مؤصدة ومثلهما احترام النفس فان من يحترم نفسه يحترم غيره بنسبة منازل الناس فى أطوارهم ومن أجل ذلك يحترمه الناس وهكذا الحال فى السياسة فالنجاح فيها يتوقف على الاخلاق وسلامة الطبع أكثر مما يتوقف على الذكاء وليس أدل على ذلك من أن الرجل إذا فقد ضبط النفس فقد فضيلة الصبر ونقص فيه حسن التصرف فعجز عن حكم نفسه وعن ادارة شؤون غيره لهذا عنى المشرع الاسلامى بذلك الخلق لان العزم والثبات

والصبر ملاك الخير وقوام السعادة فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ان مع العسر يسراً

المحاضرة السادسة (١)

﴿ فى حكم الغرباء عن لغة الاسلام فى نظر الاسلام ﴾

حاسبت نفسى حساباً عسيراً قبل القاء هذه المحاضرة والتى بعدها لما يكون فى تقرير ماجاء فيهما من التبعة والمسئولية العظيمة أمام هذا الجمع الجاهل الذى يحيط بنا .... ولكن لم أكن لأمسك عن التصريح بعقيدتى فى هاتين القضيتين الكبيرتين (حكم الغرباء عن لغة الاسلام) ووحدة الزوجية فى الاسلام وهى المحاضرة السابعة وفاء بحق احترام تلك الغوغاء لأنى ممن ينقم على الممسكين عن التصريح بعقائدهم أنى كانت بعد محاسبة نفسه بعقله خطأ كانت أوصواباً .. لان الجبن ليس فى الاحجام عن مقاتلة العدو بالاجسام فقط (لا) بل الجبن كله فى أن يحتقر الانسان قوته الادراكية بما يمسكه من التصريح بالعقيدة المحترمة فى نفسه ويسير مع المجموع فيما هو عليه من المبادئ العامة وإن كان ضميره ناقما عليها رهبة من زيد وعمرو والدين عدو التقليد وسيأتي ذلك مفصلا فى محله وهذا نص المحاضرة كما ألقيناها .....

أيها السادة :

(١) نشرت هذه المحاضرة في الجريده عدد ١٧٢١ وعدد ١٧٢٢

لست أريد الليلة أن أبتكر فيكم شيئا لم تكونوا لتعلموه من قبل — وإنما غايتي ان نبحث معاً مسألة حيوية كبيرة ألا وهى ماحكم الغرباء من الافرنج عن لغة الاسلام فى نظر الاسلام

ان الانسانيـة التى تجمعنا بذلك الصنف من أفراد بنى آدم لتقضي علينا وجوباً بأن نطرح مافى عقولنا من بقايا تلك الدروس العرضية التى قد عرضت لنا في بعض أدوار حياتنا . أقول ذلك عن نفسى لانه قد عرض لى في بعض أدوار حياتى ماقد كان يجعلنى أفر من رؤية اليهودي أو النصرانى فرار الصحيح من الاجرب لاعتقادى يومئـذ بأن مجرد التمارف كاف فى الحـكم بمصاحبته الى ذلك العذاب الأبدي وليس هـذا الهذيان كامناً في نفوس النشئ الحـديث البعيد عن العـلم من أبناء المسلمين فقط لا بل هو سائد فى عرف كثير من العيسويين والموسويين أيضاً كل طائفـة تظن أنها ظافرة بذلك النعيم المستقبل وأن ماسواها اني كانت عقيدته من المبعدين عن رحمة الله المنتظرة

ولقد سفهت الشريعة الاسلامية عقول الذاهبين هذا المذهب وناطت الفضل بالعلم والتفاضل بالعمل (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزبه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا)

أيها السادة :

علمتنا سنن الله الـكونية قاعدة تشريعية وهى أن الله ماخلق الانسان ليدعه فريســة لنفسه البهيمية يتخبط فى الحياة أنى شاءت نفسه (كلا) ولـكن قضت حكمته ان ينصب فى كل أمة رئيسا منها عليها يقودها لما فيه الضمانة لسعادتها بحيث يكون ذلك الرئيس معلما لها على نحو ماتقتضيه

النواميس الطبيعية فى الحياة القومية وإلا لو تركهم فلم يبعث فيهم رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة لسادت الفوضى بينهم ولاشتعلت نيران الحروب فى أنديتهم ذلك لأن النفس أميل الى العدوان منها الى العدل وهى لاترضى الا أن تكون وحيدة فى سلطانها عزيزة فى ملكها . كذلك الأمر بعينه من الاعتلال بنوعيه الديني والدنيوى اذا كان المعلم غير حكيم فى تعاليمه فدرس في الناس من العلم مالا يتفق مع حاجاتهم الحيوية أوجاءهم بلغة لم يكونوا عليها . ذلك لان النفس بطبيعتها تجنح إلى ما يأتلف مع تكوينها الخَلْقى والخُلُقى كما أنها تنفر مما يختلف مع سنة الطبيعة فيها وليس أدل على ذلك من تلك الاضطرابات التى نراها تحدث كل يوم بالقوانين الوضعية فى كل أمة أما الشرائع السماوية فلا يجد ذلك الانقلاب سبيلا اليها لصدورها عن الحكيم الأعلى العالم بالمصالح الزمانية والمكانية قال تعالى (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى من أجل هذا قدمنا من وجوب الوازع فى كل أمة بحيث يكون حكيما فى تعاليمه مخاطباً لها بلغتها قال جلت حكمته (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) بهذه القاعدة العمرانية أو بذلك المبدأ التشريعى الاسلامى يسهل علينا ان نصل الى معرفة حكم أولئك الغرباء عن لغة الاسلام وأهله وقوانينه أولئك الذين لاينطبق عليهم انا علمناهم مع تقاعدنا عن دعوتهم وجهلنا بلغتهم مالم

يكونوا ليعلموه من قبل

أيها السادة :

الانسان لفظ مشترك بين افراد قد اتحدت فى ماهيتها وتباينت فى فى أخلاقها شعوراً ووجداناً بتباين نسبة قيمتها علما وجهالة فاذا أنت انتقلت به الى عالم الارواح بما تمليه عليه من آيات الحكمة وينبوع الفضيلة أخذ عنك هذا الدرس وكان له من الميزة على نفسه مالم يكن له قبل واذا أنت أهملت قيادته كان الى عالم الوحشية أقرب

تلك هي سنة التكوين التى كان عليها الانسان وليس رجل المغرب انساناً يباين انسان الشرق (لا) بل كما قلنا ماصح ان يطلق على الرجل الشرقى صح ان يطلق على الرجل الغربي فنهم الخاصة والعامة ومنهم من كان الى العلم أقرب منه الى الجهل ومنهم من كان الى الجهل أقرب منه الى العلم أما القسم الاول وهم الخاصة فصنفان صنف موحد مؤمن وان كان له ذلك الاسم الافرنجى أوذلك اللباس الغربى . هذا الصنف هو الذى لم يقف في درس علوم الحياة الكونية عند حد العلوم العقلية بل جازها الى الالهيات والنبوّات بوجه عام غير ناظر فى الاستنتاج الا الى تحصيل العلم الصحيح البعيد عن الاهواء والاغراض ومن أجل ذلك لم يجد سبيلا بعد درس الشريعة الاسلامية فى أن يعيب عليها شيئا بل اعترف بأنها شريعة عمرانية روحية ما كان لمحمد وهو انسان من البشر أن يقوم بذلك العمل الخطير الا بمدد روحيٍّ الهي من هذا الصنف الاستاذ الانكليزى توماس كارليل صاحب كتاب الابطال والفيلسوف الروسى (تولستوى) قال هذا فى ضمن كلامه بعد ان شرح الوثنية التى كان عليها العرب وفى سني دعوة محمد

الأولى احتمل كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانات القديمة شأن كل نبي قبله نادى أمته الى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تكن لتؤثر على عزمه بل ما كانت تزيده الا اقداماً على دعوة أمته فأخذ ينادى فيهم باسم الواحد الأحد بحسن ما أوحى اليه الى أن قال

ومن فضائل الدين الاسلامى انه أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم حتى أباح هذا الدين لاتباعه التزوج بالمسيحيات واليهوديات مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن ولا يخفى على ذوى البصائر مافى هذا من التسامح العظيم ومما لاريب فيه أن النبي محمداً من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة وحسبه فخراً انه هدى أمة بأجمعها الى نور الحق وجعلها تجنح الى السكينة والسلام بعد ان منعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقي والمدنية وهو عمل عظيم لايقوم به الا شخص أوتى قوة فوق قوة البشر ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والاكرام

هذا بعض ماجاء فى كلام ذلك الفيلسوف مما يتعلق باعتقاده بمحمد صلى الله عليه وسلم أما الاستاذ الانكليزى صاحب كتاب الابطال فبعد ان شرح تاريخ صاحب الشريعة الاسلامية أخذ يبرهن على رسالته بما استطاع ان يبرهن به قال في ضمن كلامه مامعناه انه لو قام انسان وادعى فى الوسط الذى يعيش فيه دعوة كاذبة أنّى كانت علاقتها بالهيئة الاجتماعية فلا ريب لايمر عليها ردح من الزمن الا ويتبينها الناس من قومه ومعاشريه على النحو الذى قد وضعت عليه ذلك لان كل بناء أسس على شفا جرف هار لا بد من مآله الى السقوط وان طال الامد

واذا كانت هـذه سنة الله حتى فى صغار الامور وحقيرها من ان الـكذب لايعمر بين الناس بل هو سريع الزوال والفناء فما شأنك برجل فقير أمىّ قام فى وجه العالم أجمع بأمر لم يكن ليخطر ببالهم ولم يكن ليعرف في عرف آبائهم فجنحوا الى تلبية دعوته من التوحيـد وهم فى ربوع الوثنية وقد مرت على تلك الدعوى الكبيرة قرون وأجيال وهى تخترق أفئـدة الملايين من عقلاء الناس وحكمائهم ولم يكن لينطفئ ذلك المصباح الذى أناره صاحب الشريعة الاسلامية على العالم بتقادم العهد أو بحرص المعاندين على تحطيم تلك الدعوة التى قد رفعت بذلك الفقير الامى فوق رؤوس المـلوك والعلماء بل ما كان تقادم العهد وكثرة النظر الا من العوامـل على انتشار تلك الدعوة الدينيـة حتى أصبحت الشريعة الاسلامية مشرق المدنية والحضارة على كل بلاد العالم

هذا معنى ماقرره صاحب كتاب الابطال وفى اعتقادى ان أمثال هذا الاستاذ الانكليزى من الافرنج الاحرار الذين لايكتبون الا بما تمليه عليهم ضمائرهم من آيات التوحيد والاعتراف برسالة محمد من المؤمنين الموحدين الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون نطقوا بالشهادتين أولم ينطقوا قادرين على العربية أوعاجزين عليها سموا أنفسهم بأسماء المسلمين أولم يسموا وما كان الله ليؤاخذ الناس بأسمائهم وانما يؤاخذهم بما تكنه ضمائرهم ولـكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم (انما الاعمال بالنيات وانما لـكل امرىءمانوى)

هذا حكم ذلك الصنف عند الله في اعتقادى وان كانت لاتجرى عليهم الاحكام الدنيوية لان للشارع منصب القضاء في أطوار الانسان الظاهرية قال صلى الله عليه وسلم (أمرت لاحكم بالظاهر والله يتولى السرائر)

أما الصنف الثاني من قسم الخاصة فذلك هو الذى قد استسلم لنفسه العدوانية وانقاد لعوامل الاغراض والاهواء يعتقدهذا الصنف ان المسلمين ماداموا متمسكين بدينهم فمن الصعب عليهم ان يتقدموا خطوة الى طريق المدنية والحضارة

كبرت هـذه العقيدة فى نفوسهم بعد ذلك الشقاق الدينى فى تلك القرون الوسطى وتبع ذلك تلك الحروب الصليبية الى حد انهم قد اعتقدوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو ذلك الرجل الذى كان يعمل لتحصيل وظيفة البابوية ولمافشل فى مسعاه أحدث شريعة جديدة للانتقام من زملائه الكرادلة . استمر تيارهذا الهذيان سائراً فى طبقاتهم حتي في الجيل التاسع عشر المسمى فى اصطلاحهم بجيل العلم والمدنية فقد قام فى سـنة ١٨٢٩ (كارلوس) الانكليزى بوضع كتاب برهن فيـه فى اعتقاده بأن محمدا هو قرن الـكبش الصغير الذى جاءت الاخبار به فى الاصحاح الثامن من نبوة دانيال وان البابا هو قرن الـكبش الـكبير

استمر الناس يتخبطون فى تلك العصور الوسطى حتى الى النصف الثانى من الجيـل التاسع عشر الذى قد أشرقت فيه أشعة العلم فأحدثت انقلاباً عظيماً فى أخلاق الانسان وأصبح الطاعنون فى محمد يعتقدون بأنه المصلح الفرد الذي قد هز العالم بتعاليمه السامية ومبـادئه الحـكيمة وما كان يعمل لتحصيل وظيفة البابوية ولا هو قرن الـكبش الصغير ولـكن فؤاده كان يلتهب غـيرة على الحق الذى قد شوهت وجهه أوهام تلك الوثنية العتيقة . قال الاستاذ الانـكليزى المستشرق الـكبير سوف يعلم المسيحيون بدهش عظيم ان محمداً أحد معضدّى يسوع واذ ذاك يندهش

المسلمون والمسيحيون معاً بسبب ماجاء فى تاريخهما من ذلك الشقاق المشؤوم أما القسم الثاني وهم العامة وما فى معناهم من القسم الرابع ممن كان الى الجهل أقرب منه الى العلم فأولئك ما كنا لنجد لمؤاخذتهم سبيلا

أيها السادة :

ان للوسط تأثيراً عظيماً على الاخلاق ينشأ الطفل فى منطقة غريبة عن العربية يتربى على مهد بعيد عن أخلاق الشريعة الاسلامية وهكذا تتناوبه أدوار التربية الرئيسية من الرضاعة الى الحضانة حتى ينتقل من دور السذاجة الطفلية الى طور التمييز فماذا يكون شأنه بعد ذلك شأنه ان يفتح عينيه فيرى أبويه أمامه يتبادلان فى تلقينه دروساً من العقائد والعوائد واللغة والاخلاق بينها وبين الاسلام مسافات بعيدة لايقطعها السائر المجد الا فى أعوام وقرون فلا ينتقل من دور التمييز الى دور العقل حتى تصبح فيه تلك الاخلاق الغريبة عن الاسلام جزءاً من أجزاء التكوين الانسانى أجل انه اذا بلغ ذلك النشئ مبلغ العقلاء فنحن نحكم عليه بمقتضى عقله بالانصياع الى قوة مصدرية فردية تستمد منها جميع القوى الكونية .. هذا كل مانأخذه به أما تكليفه بالاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك شأنه الذى قدمنا لالغة لاعلم لامال يرحل به الى بلاد الاسلام ليطلب الاسلام لامعلم يملى عليه شيئا من تلك الاحكام فمثل ذلك ولاريب لانجد لمؤاخذته سبيلا لانه مكره مقهور بعوامل الطبيعة من الجهل باللغة والفقر فى المال والتأثير عليه من جميع الوجوه بحكم ذلك الوسط الذى قد نشأ فيه

أيها السادة :

لم يدع الاسلام فتيلا في كل مايتعلق بسعادة الانسان في حياته الأولى والثانية الا وقد عقد له أبوابا وفصولا فقال في هذا الباب (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) كما قال (ماجعل عليكم في الدين من حرج) ومن ثمة قال بعض الأصوليين لايجوز التكليف بالمحال والصواب امتناع تكليف الغافل والملجأ والمكره على الصحيح

اتفق النظار من العلماء لافرق بين المعتزلة وأهل السنة على ان القدرة شرط في التكليف وسواء حددنا ماهية القدرة بسلامة الآلات وصحة الأسباب أو انها صفة بها التمكن من الفعل والترك فلا نجد لها أثراً بالنسبة لاولئك الملجمين بلجام من حديد عن اللغة العربية بحكم الوسط الذى قد نشأوا فيه

أيها الساده :

ان التكليف بالمحال محال الصدور من الحكيم وقد اشترط الذاهبون هذا المذهب من منع التكليف بالمحال اشترطوا في التكليف أن يكون المكلف فاهماً للخطاب ومن ثمة حكموا بعدم تكليف الغافل كالنائم والساهي ضرورة ان التكليف طلب حصول الفعل اختياراً ولا سبيل الى ذلك من الساهي أو النائم لعدم وجود الفهم الذى هو شرط في التكليف

وفي اعتقادى أن الجاهل بلغة قوم قرروا أمراً بينهم يسيرون عليه في حياتهم القومية لايؤاخذ بمخالفته لهم وان كان حاضراً في مجلس العقد ذلك لان التكاليف لاتقام حدودها الا بعد وصول الدعوة الى المكلفين

وليس مجرد الوصول كافياً بل لابد في صحة التكليف من فهم المكلف الخطاب الذى وجه اليه والا كان ضرباً من التكليف بالمحال

ان عدم الفهم الذى كان سبباً في منع تكليف الغافل يصح أن يكون قدراً مشتركا بينه وبين الغريب عن لغة الاسلام ولم يجد له معلماً بلغته يعلمه الكتاب والحكمة فعدم الفهم الذى اعتبرناه عذراً فى عدم تكليف الغافل هو بعينه الذى يجب ان يكون عذراً في عدم تكليف العاجز عن اللغة ذلك لان الشارع في هذا الباب قد أناط الحكم فى منع التكليف بعدم الفهم أنى كان موصوفه لافرق فى ذلك بين الغافل والعاجز (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) انظروا أيها السادة الى القول الحكيم (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) وانما قال أرسلنا فيكم رسولا منكم ليحصل بذلك الفهم الذى هو شرط فى التكليف فبربكم من الذي علم أولئك بلغتهم أو بلغة القرآن مالم يكونوا يعلمون بالضرورة لامعلم فتكليفهم بالاسلام وذلك شأنهم الذى قدمنا ضرب من العدوان الذى ينافى المدنية التى قد اعترف بها العارفون منهم بالاسلام للاسلام أما الحكم عليهم بوجوب النظر فذلك أيضا يحتاج الى معلم حكيم ولامعلم ان النشأة التى قد نشأوا عليها من البعد عن لغة الاسلام وآدابه وأحكامه لمن العوامل الطبيعية المؤثرة على أخلاقهم وتلك المؤثرات لاسبيل الى مسخها أونسخها الا بجيوش من العلم أقوى منها فتكليف أولئك بالاسلام مع تقاعدنا عن تعليمهم ضرب من العبث بقوانين الطبيعة نعم أنهم يسمعون عن الاسلام كما تسمع المرأة المصرية المسلمة وهى لاتعرف من الدين الا اسمه فمثل أولئك مثلها فى عدم النظر فما حكمتم به عليها اسلاماً وكفراً

فمن العدل ان تحكموا به عليهم وغاية مافي الباب ان الفرق بينهما يرجع الى تسميتها نفسها بأنها مسلمة لوجود الوسط الاسلامى الذى قد نشأت فيه وهم لم يسموا أنفسهم بهذا الاسم لوجود المعارض من البعد عن لغة الاسلام وقوانينه وما ثبت بعارض يزول بزواله

أيها السادة :

هذا هو حكم الله الذى يطمئن اليه ضميرى بالنسبة لذلك الصنف وهنالك طبقة أخرى ترجع الى تلك الاقسام السابقة وهم أولئك الاجانب الذين يفدون الى البلاد الشرقية فهؤلاء خطبهم لم يكونوا لينفردوا به على أنفسهم بل نحن والحمد لله لنا حظ فى العدوان على عقائدهم يفد الرجل الغريب عن الاسلام فى بلاد الاسلام ويستعين فى سياحته بأولئك الجاهلين من المترجمين بين مصريين وسوريين وكلنا يعلم قيمة أولئك من الوجهة الاخلاقية والعلمية فيخلطون لهم عملاً صالحاً بآخر سيئا وياليت الخطب يقف عند هذا الحد (لا) ولكننا والحمد لله أصبحنا بفضل الانقياد الى العوائد افراداً وبفضيلة الشغب فى الدين جماعات واعداداً فهذه طريقة كذا تذكر وتصيح وتلك طريقة كذا تأكل المصابيح وثالثة ورابعة وخامسة لكل قبلة يصلى اليها

ينظر الأجنبي لهذه الأفاعيل الوحشية التى يفعلها المسلمون باسم الاسلام ومن ثمة يحكم على سذاجة الاسلام بفعل المسلمين

أيها السادة :

ان رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عامة (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيرا) ومن أجل عموم رسالته فرض الاسلام على المسلمين اذ

يقوموا بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وهل قام المسلمون بما فرض الله (كلا) وهذا الذى نظنه قياماً بالأمر ليس منه فى شئ ان الأبرار لا يدعون الى أن يكونوا أبراراً وأحوج الناس الى الأمر بالمعروف أولئك الذين قد تناوبتهم فى نشأتهم أطوار الافرنجية المحضة (ياأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون

المحاضرة السابعة (١)

﴿ فى وحدة الزوجية فى الاسلام ﴾

ليس بين الناس من المسائل الاجتماعية الكبيرة ما يجب أن يعتنى به العناية بمسألة الزوجية فهى من أفعل الاسباب فى تكوين هذا العمران ومبدأ المحبة وشعار السلام

لهذا تحركت نفسي فى أن أبحث هذه المسألة بحثاً دقيقاً وأحسن البحث ماطرح على بساط النظر فيتسابق فيه فرسان الافكار حتى يصيب كل بسهمه مرماه بما يدخل تحت حسن صناعته المنطقية بأخذ النتائج من مقدماتها الصحيحة

كبرت هذه الأمنية فى نفسى ووجدت فى نادى محاضرات الكلية

الأهلية متسعاً عظيماً لتحقيق غايتي فعرضت الفكرة على حضرة الأستاذ (مدير النادي) فرحب بالمسألة ترحيب العارف بمكانتها الاجتماعية ثم أخذ بحسن ادارته يعمل في وضع (برنامج) نظام النادى فأباح لكل من توفرت له الكفاءة العلمية أن يناقشنا الحساب في بحث المسألة حسب نظام النادى وأعلنت قبل القاءها جميع الجرائد العربية (والافرنجية) وهذا نص الاعلان

سيلقى حضرة الأستاذ المفضال الشيخ محمد فراج المنياوى من نبغاء الأزهر الشريف بنادى الكلية الأهلية محاضرة اسلامية جليلة موضوعها (وحدة الزوجية في الاسلام) وذلك في الساعة السابعة بعد ظهر يوم الخميس ١١ ابريل سنة ١٩١٢ وهو يقبل الانتقادات والمناقشات الوجيهة التى يبديها أهل الفضل حسب نظام النادى وما انتشر هذا الاعلان يوم ٩ ابريل و١٠ و١١ بالجريده والمؤيد واللواء والمقطم إلا وقد أعد كثير من الناس عددهم لاليتبينوا بالبحث مسألة دينية كبيرة ولكن ليصادموا قاعدة جديدة في زعمهم لم يكونوا ليألفوها من قبل وما وافت الساعة السابعة من مساء يوم الخميس ١١ ابريل سنة ٩١٢ الا وقد وفد على النادى الألوف من نخبة القوم وأفاضلهم يتقدمعلماء الأزهر فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ محمد حسونه النواوى شيخ جامع القلعه

ولقد وصلنى قبل يوم انعقاد الحفلة للبحث في هذه المسألة الكبيرة كتاب من حضرة مدير الكلية هذا نصه

مصر في ٧ ، ٤ ، ٩١٢

حضرة الأستاذ المفضال الشيخ محمد فراج المنياوى

بعد عاطر التحية . أعلنا في آخر الجلسه الماضية حسب وعدكم الشريف

أن موضوع « وحـدة الزوجية فى الاسـلام » الذى ستتفضلون بالقائه سيكون يوم الخميس المقبـل فأرجو منكم مزيد العناية وعظيم الاهتمام فسيكون النادى مكتظا بكثير من أهل الفضل والعلم وأنت خير من يوفىّ الموضوع حقه ويقنع بل يفحم المنتقدين بأدلته القاطعة وبراهينه الدامغة وبودى كثيراً لو تشرفونى قبـل الاجتماع لعمل الترتيب اللازم وتفضلوا بقبول خالص تحياتى وفائق احتراماتى المخلص

السيد محمد

هـذا وقد كان ذلك اليوم الذى ألقيت فيه هـذه المحاضرة الجليلة يوماً مشهوداً من أعظم الأيام المشهودة العلمية فى تاريخ مصر الحاضر وما صادفنى في كل أيام حياتى ماصادفني من الصعوبات فى تلك الليلة من المحاورة والمناقشة مع المجموع الحاضر على اختلاف طبقاتهم فى مداركهم وأذواقهم فى أسئلتهم

ولقد صعدت على منبر الخطابة الساعة السابعة مساء وكانت الكلمة الختامية للرد على المنتقدين الساعة الأولى بعد منتصف الليل ولقد اقترح بعضهم فى سبيل الرد علىّ بقوله حيث إن المسألة دينية كبيرة فيجب أن ترفع لدار الخلافة الاسلامية للحكم فيها

ثم قام بعض علماء الأزهر مسفّهاً رأى ذلك المعـترض ومعيباً على ادراكه بما فهمه من خطابى . وقد قرّ قرار الجماعة أخيراً على اختيار لجنة من كبار العلماء للفصل فى المسألة كما أعلن بذلك المؤيد يوم ٢١ ابريل سنة ١٩١٢ وهذا نص الاعلان

« ألقى حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد فراج المنياوى محاضرة

فى دار الكلية الأهلية فى مساء الخميس ١١ ابريل موضوعها وحدة الزوجية في الاسلام » فعارضه وناقشه الحاضرون وفضلوا تعدد الزوجات على الوحدة وقام الخلاف بينهم على هذه النقطة وأخيراً قرّ قرار الجماعة على رفع أمرهم الى فئة من كبار العلماء للبت فى هذه المسألة الهامة أما المحاضرة فهذا نصها

أيها السادة :

يسرنى أن أراكم الليلة متزاحمين هذا النوع من التزاحم لنبحث جميعاً مسألة من أكبر المسائل الاجتماعية « وحدة الزوجية فى الاسلام »

أصبحت هذه المسألة فى نظر كثير من المسلمين من الاحكام الغريبة عن الاسلام وأصبح الاوروبى يرى الزوجية فى هذا الدين الحنيف بجسم خاص لم يكن ليعرف قبل فى جميع شرائع الله فى العالم أجمع فكأن الشريعة الاسلامية ليست شريعة روحية بل هى شريعة أرضية نفسيه أكثر منها سماوية علوية بما وضعت للنفس من ميادين الشهوة البهيمية لتعدد الزوجية بدلا عن الوحدة التى يتحقق بها سر التشريع من التوالد

يقول الغرباء عن الدين ليس هذا هو الشأن فى الشرائع السماوية الآخذة بالانسان الى عالم الملكوت الأعلى بل الشأن فيها تربية النفوس النازعة الى الشهوة بتهذيبها حتى يصبح الانسان بتلك التربية الدينية روحا سماوية لاجسما أرضياً وبهذا الرقي الروحى تتولد السعادة ويعمر الانسان فى الحياة بوحدة الزوجية التى هى الحكم الرئيسي الأول في سبيل تحقيق سر التشريع من التوالد

هكذا قد ظلموا أنفسهم بما فهموا والله يعلم ان الاسلام براء من ذلك

التعدد المطلق الذى أصبحت الزوجية به عقد حرب وفناء لا عقد سلم وبقاء

أيها السادة

يجب علينا أولا أن نعرف ماهى الزوجية وما قيمتها فى نظر الشارع وما الذى يتولد عنها من بشائر السلام ورسل المحبة التى هى ملاك الخير بين أفراد بنى آدم وقوام سعادة الجمعية الانسانية

الزوجة هى الأصل الثاني الذي قام عليه بناء العمران .. فالزوجية اذا ضرب من التعاهد والتضامن على تكوين عائلة يكون لها شأن حيوى فى الوجود وكل كائن له وظيفة ومرجع الكائنات مع تباين وظائفها متحد في سبيل تحقيق غرض واحد وهو تقويم سر حياة اجتماعية عمرانية

من هذه المقدمات نعلم بداهة أن حكمة الزوجية بوجه عام حيوانية أونباتية أوجمادية عمرانية محضة قال جلت عظمته (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) وأصلها الزوجية الانسانية التى بها استبقاء النوع الانسانى لان الله ما كان ليوجد كائنا فى الوجود الا للانسان (وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه)

من أجل هذا كانت الزوجية روحا داعية الى السلام تتألف بها القلوب وعليها تقوم صلات الرحم قال تعالى (خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة)

ولقد نسج على هذا السر القرآنى كثير من الحكماء قال بعضهم « العمران والتعاون وشركة العواطف والالفة العائلية والحب والحنان خمس دعائم ينبني عليها أهم مصالح الانسان في هذه الحياة وكلها من ينبوع واحد هو الزوجية)

أيها السادة

انى لا أريد أن أتكلم عن المسألة الا من الوجهتين العقلية والنقلية اللتين بهما رعاية حق الجماعة . وقد قدمت لحضراتكم صراحة القرآن فيما ترجع اليه حكمة الزوجية من التوالد وأنها أقنوم الحب وقيوم المودة فبربكم انظروا معي أىّ الامرين أقرب الى تحقيق السر التشريعى التعدد أم الوحدة ..... أظن أنه من البديهى حتى عند البله الذين لا نظر لهم أن تعدد الزوجية خصوصاً فى هذا القرن الاخير الذى قدأقبرت فيه الاخلاق الفاضلة نذير الفشل والشقاق وعامل كبير فى سريان وباء الفرقة التى هى الآفة الفردية فى تمزيق جسم الجمعية الانسانية

المرأة وخصوصاً الشرقية تجهل وظيفتها الأساسية وما كان ليخطر ببالها فى حياتها الا مجموعة من سخائم النفس البهيمية فهى تقضى وقتها في سبيل كيف تأكل وكيف تشرب وكيف يكون التفنن في أساليب الزخارف اللباسية

هذا شأنها وكل ماتسمى اليه أن تكون محط آمال زوجها

وقد يرتجف قلبها فى اليوم خمسين مرة اذا هو أعرض عنها بقصد وبلاقصد لاعتقادها بحكم الخيال أوالوهم أنه أخذ يبغى بها بدلا فيتولد من وراء ذلك روح عدائية تنمو فى كل يوم وتتكامل فكلما أوحى اليها شيطان الوهم خبراً كلما أثار عواطفها فيصبح الزوجان بفضل هذا الجهل يتجرعان غصص النفرة بدلا عن شعائر العشرة فيختل كيان التناسل ويختل نظام الوجود

هذا هو حال الزوجة الواحدة مع زوجها وذلك مبلغها من العلم فى

الوقت الذى تتسابق فيه المرأة الغربية لتكون عضوة عاملة فى مجلس النواب . تلك هى أخلاق المرأة المصرية فى الوقت الذى نسمع فيه ببسالة المرأة العربية فى سبيل نصرة الدين وتفانيها لانتظامها في مصاف القتال فى هذه الحروب الطليانية الاخيرة

هذا هو شأن المرأة اذا توهمت مشاركا لها في مركزها فانظروا معى كيف يكون اضطراب أركان الزوجية اذا زاحمت الزوجة بالفعل زوجة أخرى في مركزها الذي تجنح الى الاستقلال فيه .... فاذا كان الانسان بحكم طبيعته نازعاً الى الحرية جانحاً الى الاستقلال فالزوجة وهى فرد من بنى آدم تتفانى بحكم طبيعتها الى أن يكون قلب زوجها حقاً خالصا لها

ذلك لأن الاستقلال فى الزوجية مملكة أخرى عائلية بل هى المملكة الرئيسية على كل مملكة فى الوجود

كل مملكة تعظم منعتها بكثرة عصبيتها الا المملكة فى الزوجية فنعتها الوحدة كل زوجة مع زوجة أخرى احتلال لا يتفق مع السلام فمن الجناية على الدين أن نقضى على حكمة التشريع من الجهة التى نعتقد أنا بها نقيم شعائر الله فينا

أيها السادة :

انى لأستطيع أن أصرح بينكم بأن المشرع الاسلامي ما كان ليبيح تعدد الزوجيـة بوجه عام بل التخيير مشروط بشروط والشروط مفقودة بشهادة مانراه بأعيننا فى بيوتنا ومانسمعه بآذاننا من اخواننا وما نقرأه كل يوم فى الجرائد مما تعافه النفوس الأبية وتتبرأ منه الشريعة الاسلامية

ولو أنا نظرنا فى كتاب الله نظرة حكيم يزن الامور بما يجب أن

توزن به لعلمنا أنه لاسبيل الى إباحة التعدد مادام ينجم عنه انقضاء الحكمة التشريعيــة فالله شرع الاحكام فينا مقرونة بالحكمة فان فاتت بفعل الفاعل انقلبت السنة بدعة واستحال ما كان مباحاً الى الحرمه

يقول كثير من أنصار التعدد .. ان فى التعدد من الحكمة مالايوجد مع الوحــدة ككثرة التوالد المكثرة لسواد المسلمين وعصمة المرأة والله يعلم والناس أجمعون ان اختــلال كيان التناسل وانتهاك الحرمات ما كان الأمن وراء تلك الثورة العدائية التى تنجم من وراء تزاحم الزوجات فترى العائلة الواحدة فرقاً وأحزاباً ....

كل زوجة مع أبنائها حزب فيشب الطفل بعد تلقينه دروس الفرقة بطريقة عملية عدواً لأبيه أولأخيــه فلا تسمع بعد ذلك الا أن قتل الولد أباه أو أخاه أوقتلت المرأة زوجها لانه قد مال الى غــيرها من ضرائرها أو أخذ زيد ميراث أبيه وحرم عمرو منه

هكذا ترونهم فى دين الله باسم الدين فرقاً وشيعاً وما لهم في الدين من نصيب (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ) ان تعدد الزوجية وتلك أخلاقنا غــير مباح فى الاسلام إباحة مطلقة وما جاء من الاباحة فى هــذا الباب فقد رجع به الشارع عند عدم استيفاء شروطه الى الوحدة بالحرمة

ماهذا التوالد وما تلك العصمة التى تصبح أنديتنا من أجلها ملتحمة بالمعارك فتراق فيها الدماء وتتقطع صلات الارحام اللهم انك تعــلم أن الزوجية عاصمة للحقوق لاقاطعة لها

هذا اذا اشتعلت نيران الحروب من جهة المرأة لحقدها على ضرائرها

المنازعات لها في مركزها .. أما إذا ساعد ذلك حدوث الجناية من جهة الرجل الجائر وكلنا جائرون بحكم ضعف نفوسنا فلا ريب يتضاعف الخطب بتعدد العدوان على نسبة توحيد العامل على أن تعليل التعدد بالعصمة لكثرة النساء لايوصلنا اليها بل هو من العوامل الكبيرة على انتهاك الحرمات فنكون بنفس التعدد وقعنا فى الشيء الذى قد فررنا منه .. ذلك لان مايحصله الرجل من الكمية فى البنات اذا توحدت المرأة ليس بشيء فى جانب مايحصله من الكثرة اذا تعددت

انا اذا جعلنا حكمة التعدد راجعة الى العصمة للكثرة فلاريب يصادفنا زمن فى دور من ادوار حياتنا نضطر فيه الى وضع أحكام جديدة فيمسك الرجل أربعين من النساء بدلا عن أربع ضرورة أن التعدد فى الزوجية موجب للكثرة فى البنات فللعصمة نضاعف عدد الزوجات على نسبة التوالد فى البنات قلة وكثرة

أما مابرهنت عليه الاحصائيات الرسمية فى بعض البلاد الغربية «كليون وباريس» وغيرهما من ضعف نسبة التوالد بجانب كثرة المجموع فذلك مصدره الغلو أو الاغراق فى محض تحصيل تلك اللذة الحيوانية على أى وجه كان من غير رعاية لتشريع سماوى حتى كانت مسألة الزواج محط آمال كثير من رجال الجمهورية الفرنساوية .... ولم يكن ليتولد ذلك الضعف من التوالد من جهة أن الديانة المسيحية ضيقت عليهم باب الزوجية كما يقول كثير من أنصار التعدد فى الاستدلال على وجوب العدد ....

هذا هو الحكم بالدليل على المسألة من الوجهة العقلية التى روعي فيها حق الجماعة أما من الوجهة النقلية فما كنا لنعلم فى أية شريعة من شرائع الله

فى العالم أجمع مشروعية التعدد على أن يكون عزيمة حتى فى تلك القرون الاولى التى كانت روح العمران فيها مفقودة ..... فلئن كانت حاجتنا اليوم داعية الى التعدد لآية حكمة فهى كانت بالامس أشد اقتضاء ولكن جلت حكمة الله عن أن يعقد في التشريع فصلا واحداً من هذا الباب لما فيه من الخطر الذي يهدد روح الوفاق بين العائلات المتناسبة والقبائل المتحابة

(شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وليس ثمة تفريق فوق مايقع بين ضرائر الزوجات خصوصاً اذا ضاعف الرجل الجاهل الجناية بجوره المنهى عنه

جاء آدم عليه الصلاة والسلام وكان بنوه بداهة في عالم العدم فأحل الله نكاح الاخوات والبنات قضاء لحق الحاجة العمرانية ولما انتشر بنوه على وجه البسيطة رجع الامر الى مامن شأنه أن يكون عليه من احترام تلك الحرمات فنسخ نكاح الاخوات والبنات وجاءت الشرائع الاخرى بتعاليم جديدة على وفق ماقضت به مصالحهم حتى جاء صاحب الشريعة الاسلامية وكان الناس على ماشرحنا قبل (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بانهم قوم لا يعقلون)

أخذ ذلك الحكيم الامي يجمع شتاتهم وينتقل بهم من العوائد الى العقائد تدريجاً فمثلا كان الخمر بينهم سائداً . وقد أمّ الناس ليلة (عبدالرحمن ابن عوف) فقرأ فى صلاة المغرب « قل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون ونحن نعبد ماتعبدون » فنزل (ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون) وهكذا أخذ ينتقل بهم على نحو سنته

الحكمية حتى قرر حكم التحريم فيهم فقال (إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) كذلك الامر بعينه فى مسألة الزوجية فقد كان الرجل يتفاني في تحصيل نكاح اليتامى ليأخذ ما بأيديهن من الميراث وقد علت فيهم هذه الروح حتى لقد كثر التساؤل عنها قال تعالى (يستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن) «من الميراث » وترغبون أن تنكحوهن) وما الذى قد أفتاهم به فى الكتاب ذلك هو قوله (وان خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى) وهو جمع للاناث كما يصح أن يكون جمعا للذكور بخلاف أيتام فهو جمع ليتيم فقط ندع كلام سيبويه ونرجع الى كلام الله قال ما معناه وان خفتم أن لا تقيموا العدل بين النساء اليتيمات فغيرهن من النساء كثير حالة كونهن معدودات بهذا العدد مثنى وثلاث ورباع (وان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) على معنى وان خفتم عدم العدل فى كل نصاب أعلى فانزلوا الى ماهو أدنى منه أى ان خفتم عدم العدل بالنسبة للأربع فانزلوا الى ثلاث فان تعسر عليكم العدل بينهن فالى اثنتين والا فالزموا واحدة

ومعنى ذلك بعبارة أوسع أن الشارع الحكيم أراد أن يخلق فيهم روحا تهون عليهم خطب انتقالهم من نكاح اليتيمات المقصود للمال لا للتوالد ففتح لهم بابا شاسعا

وان خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فالطيبات من النساء كثيرات فاعقدوا على الذى حل لكم بالغا قدره ما بلغ ثم سد عليهم هذه السعة فى العدد بالتقييد بالاربع ثم الى لزوم النصاب الادنى عند عدم استطاعة العدل

بالنسبة للاعلى وما عسر عليه العدل بين أربع عسر عليه بين ثلاث و ثنتين من غير فرق بين القلة والكثرة

فالجور منشأه العدد المطلق مع ضعف النفس وعدم ضبطها عند الانعطاف الى واحدة بعينها لاعدد مقيد بأربع أو بثلاث

وقيل ان القوم كانوا يتحرجون من الولاية على اليتامى ولا يتحرجون من الزنا فقال لهم إن تحرجتم من الولاية فتحرجوا من الزنا فانكحوا الطيبات من النساء وعلى أية رواية من هذه الروايات فروح التشريع ناطقة بأن الوحدة أقرب الى السلام من التعدد ذلك لانه لم يقف عند قوله (وان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة بل رغبهم في الوحدة ونبههم عن شئ قد يكونوا عنه غافلين فقال لهم ذلك أى لزوم الوحدة أدنى أن لا تعولوا من العيلة على رأى الشافعي (رضي الله عنه) أى أن لا تكثر عيالكم من التعدد يعني وأنتم ملزمون بتربيتهم وقضاء حوائجهم وفي ذلك من الكلفة ما يدفعكم على تحصيل الرزق على أيّ وجه كان ولو من الطرق البعيدة عن روح الدين

هذا هو رأى الشافعي رضي الله عنه فيما فهم في قوله (أن لا تعولوا) من العيلة وهو أسلم مما ذهب اليه جمهور المفسرين في تفسير (العول) بالجور أخذاً من اللغة

ذلك لان الاقرب لبلاغة القرآن أن يفسر (العول) بالعيلة لا بالجور حتي يكون علة جديدة في أن الوحدة أقرب للمصلحة من العدد وماثبت بعلتين متباينتين أكثر قبولا عند النفس .... مما ثبت بعلة واحدة

وللتأسيس عند البلغاء مالم يكن للتأكيد من القبول . وليس وراء القرآن لغة يحتج بها . نرجع الى ما كنا فيه

قلنا ان الشارع لم يقف عند حد قوله (وان خفتم أن لا تقسطوا فواحدة بل قال ذلك أدنى وأقرب أن لا تعولوا ولم يقف عند هذا الحد بل سجل عليهم عـدم العدل فقال بعـد ذلك كله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) وفي الناس من يحاول دعوى العدل بالحرص عليه ويعمل على تأويل كتاب الله ليقضى من وراء ذلك حاجـة في نفسه فرد على ذلك الصنف بقوله (ولو حرصتم)

ولقد ذهب جمهور المفسرين الى أن العدل المنفي فى قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) الميل القلبي

وأنا لا أراه وجيها سالما من الاعتراض عليه اذ القلوب وأميالها مملوكة الى الله تعـالى ملـكا مطلقا وليس للعبد شبه ملك فيها وما كان مملوكا الى الله ملـكا مطلقا ليس لقدرة العبد دخل فيه لا يصح أن ينفى عن أن يكون متناول قـدرته والا كان الاخبار بنفي المنفى بحكم العجز عن تحصيله اخباراً بمعلوم وهو لا يليق بهذا التشريع الحـكيم

وليس من الحـكمة في شيء أن أقول لفرد من بنى آدم (لن تستطيع رفع الجبل على رأسـك باقيا على حالته التى هو عليها) أو لن تستطيع أن تطير الى السماء والا كان ضربا من الهوس لنفي شيء قد علم استحالة حصوله منه فهو منفي عنه بما خلقه الله فيه من العجز عن تحصيله حتى أنه هو ليشعر بنفيه عن نفسه بطريق الوجدان

الى هنا يصح أن نقول ان العبد مكلف ببذل الجهد لتحصيل عدل يناسبه بعد جهاد النفس بعلاجها ووقوفها عند حدود الله والا كان التعدد في الزوجية حراماً ... فالعدل المـكلف به العبد ما يدخل تحت متناول قدرته

بجهاد النفس وضبطها بقدر استطاعته عن الجموح الى الميل بدليل قوله (فلا تميلوا كل الميل) الذى هو يشعر بجواز بعض الميل الحاصل على غير ارادة العبد بعد مجاهدة النفس وتحصيل ما كان من مقدورها لان العدل المطلق بكل معانيه فى التسوية بين الزوجات تسوية صحيحة منضبطة لاتشوبها شائبة ميل غير ميسور للانسان بعوامل نفسه البهيمية (خلق الانسان ماأكفره) (انه كان ظلوما جهولا) وهذا هو المراد من قول الله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم)

انا لو ألفنا قول الله تعالى (وان خفتم أن لاتقسطوا فواحدة) تأليفاً منطقيا على أن تكون هذه صغرى القياس مع قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) على أن تكون مقدمة كبرى لكانت النتيجة تحريم العدد

ولكن قلنا أن العدل في الكبرى مراد به العدل بأوسع معناه وهو غيره فى الصغرى اذ المراد منه العدل الحاصل بمجاهدة النفس فالمحمول فى الصغرى غير الموضوع فى الكبرى اللهم الا اذا ألفناه على هذا النحو (التعدد مشروط بشروط وحدود . وهى بذل الجهد فى تحصيل العدل) (وتلك الشروط مفقودة) فالتعدد مفقود أيضاً

أما زواج النبي صلى الله عليه وسلم تسعا فالاجماع على أنها خصوصية به وذلك لايقدح فى مقامه الرفيع بدعوى أنه من قبيل خدمة النفس

اذ لو كان المقصود محض احترام الشهوات النفسية لحل له صلى الله عليه وسلم أن يأخذ عليهن أو بعد طلاقهن ما شاء من النساء كما يجوز لأىّ فرد منا مسيحيا كان أو مسلماً فالمسيحى مثلا له أن يطلق امرأته بجناية

الزنا وأن يأخذ اخرى وهكذا كلما وقعت هذه الجناية كلما طلق وأخذ أخرى من غير نهاية .. كذلك المسلم اذا لم يعاشر المرأة بالمعروف فالشارع يكافه بالطلاق وله أن يأخذ اخرى من غير نهاية ولا يزيد فى الجمع على القدر المباح بشرط العدل ولا عدل كما قررنا

انه لو كان المقصود الخدمة النفسية كما يقول بعض الجاهلين لما قصره الله على زوجاته التسع بعينهن وتحريم ما وراء ذلك من حرائر النساء بل كان يبيح له وراء التسع ماهو أنسب بخدمة النفس وليس أدل على ذلك من قوله تعالى (لا تحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج) والمعنى لايحل لك من بعد التسع زوجة ولا زوجات بالطريق الاولى لان التسع نصابك المخصوص بك لاستطاعتك العدل بمالك من الاخلاق النبوية ويجب أن يكون للانبياء حالة لم تكن لاحد من العالمين هذا

وللناس فى باب الزوجية كلام .. فمنهم من تعدى بالكثرة من الاربع الى التسع مستدلا بقوله مثنى وثلاث ورباع على معنى أن الحاصل الجميعى تسع ومنهم من ترقى الى ثمانية عشر على معنى التكرير فى لفظ الحال المعدول عنه مثنى مثنى بأربع وثلاث ثلاث بست ورباع رباع بثمانية فيكون الحاصل الجميعى ثمانية عشر

ومن الناس من لم يجعل للكثرة حدا بدليل قوله (فانكحوا ماطاب لكم من النساء) بلغن مابلغن لا إلى حد محدود وقوله بعد ذلك مثنى وثلاث ورباع ليس لبيان قصر الطيبات على هذا العدد وحصرهن فيه بل هو بيان للهيئة التى يكون عليها العقد لما هو مقرر عند النحاة من أن الحال وصف لصاحبها قيد لعاملها فكأنه قال اعقدوا على الطيبات بلغن مابلغن على هذه

السكيفية مثنى وثلاث ورباع على معنى قولهم دخل القوم (وكانوا مليونا) دار زيد مثنى مثنى وثلاث ثلاث ورباع رباع وهو صادق بدخولهم جميعا وغاية مافى الباب أنهم لم يدخلوا الدار على هيئة كان عدد الداخلين فيها أكثر من ذلك وهذا كله خلط يفهمون ما يفهمون والله غالب على أمره

أيها السادة :

لسنا فى حاجة الى أن نحمل التشريع مالا يحتمل لنعزز بذلك أميالنا وأغراضنا وليس الشارع جامدا بل هو حكيم متصرف وليست الشريعة موضوعة لزمان بعينه فى مكان بعينه وانما هى أحكام إلهية متكفلة بمصالح الناس في كل زمان ومالنا لا نقول بحرمة التعدد والمسألة تتناوبها الأحكام الخمس بمعنى أنها تلبس ثياب كل حكم عند وجود مقتضيه وهل نسيتم ماعقده الشارع من باب العزيمة والرخصة فقد يكون الشئ واجبا أو حراماً ثم يستحيل الواجب حراماً والحرام واجباً عند وجود الداعية وأية داعية فى تحريم التعدد وراء قبر أخلاق المسلمين اليوم وتمسكهم بالمدنية الحديثة المخترعة

أيها الساده :

لست أريد أن أشرع فيكم شريعة جديدة ومن أنا الذى أشرع وقد تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيضاء نقية

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينًا) وانما الذى أخطبكم فيه الليلة هو النداء بقول الله وان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة). (ذلك أدنى أن لاتعولوا). (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم). (كتاب الله عليكم)

المحاضرة الثامنة

﴿ في حقيقة الروح وحكم القرآن فيها بعد ذكر آراء الفلاسفة ﴾

« ويسئلونك عن الروح قل الروح »
« من أمر ربى وما أوتيتم من العلم »
« الا قليلا »

« قرآن شريف »

مهما سلكنا سبيل الاستقراء فى أساليب التراكيب العربية لأساطين البلاغة من بني آدم فى كل زمان ومكان فمحال أن نرى فيها هذا الاقناع من الحجة على وجه يذهب بالنفس كل مذهب في بحار هذا السر الحكيم ...

سلك علماء النظر فى هذا الباب مسالك وعرة وللفلاسفة اليونانيين مذاهب متباينة وقد اتسعت بهم ساحة الخلف من وراء تشعب الأراء ولم يكونوا ليقفوا على الكنه والحقيقة وما هو الا عالم الخيال ذهب بهم كل مذهب وهمىٍ ممكن قال (أفلاطون) فى الروح مامعناه (الروح جوهر لطيف غير قابل للفناء تولد من ازدواج النموذجات القضايا العقلية التى هى وراء المادة بتأثير الفاعل الأعلى وان الكواكب هى محتدها الأصلى كما انها المرجع والمصير بعد أن تفارق ذلك الغلاف المادى جسد الانسان) وذهب ارسطو فى النفس مذاهب لم يكن ليذهب اليها أفلاطون فالنفوس عنده أنواع مختلفة الوظيفة (فاعلة ومنفعلة والأولى باقية أبدا أو شاعرة وعاقله والثانية هى التى انتقلت بالانسان من طور البهيمية الى عالم الانسانية) وقال الفيلسوف (ذينون) الروح شعاع مصدره ذلك الكوكب النهارى

الذي هو ينبوع حياة الكائنات وهو المصير بعد انقضاء هذه الحياة القصيرة)
ولم تأخذ هـذا الفيلسوف نشوة الاعجاب بعظيم سلطانه العلمى بل صرح
بأنه لا يدخـل تحت عالم النواميس الطبيعية ادراك الـكنه والحقيقة وقال
بيقور (هى جوهر لطيف ذو خصوصيات سامية ولوجوده فى ذلك الغلاف
الجسماني أجل محـدود حتى اذا ما اعتل نظامه خرجت منه تلك الروح
وتحللت كما تحلل هو أيضا وتلاشت في الوجود)

تخبط أهل النظر كثيراً في هذه المسألة العويصة وأخذ كل فريق
يعمل على ترويج بضاعته حتى جاء صاحب الشريعة الاسلاميـة فى القرن
السابع من الميلاد قائلا قفوا بذلك السر الالهى عنـد حدودكم ومهما يكن
للمدارك التى وهبنا كم من المكانة والاكبار فمحال عليها ان تحيط ادراكا
بكنه ما أودعنا كم من جمـال الطبيعة الروحيـة التى جعلت لذلك القوام
الصورى المادى حيزا كبيراً فى الوجود (ويسئلونك عن الروح قل الروح
من أمر ربى) أجـل كل كائن كان فهو من أمر الله ولـكنه أتى بذلك
الاسناد (الروح من أمر ربي) وتلك الاضافة الضمنية فى المسـند اضافة
الأمر الى الرب واضافة الرب الى ياء المتكلم تشريفا للمسند اليه واعتناء
بشأن المقام وتعظيما للمضاف اليه وتلويحا بأن هـذا السر الذى قام بهـذا
التـكوين الانسانى من آيات الله فى الوجود ...أتى بهذا الاجمال فى التحديد
ليذهب النظار بأنظارهم كل مذهب فكرى ثم اذا رجعوا الكرة لايجدون
للجحود بآيات الله الـكونية سبيلا .. وأى عجز فى الانسان بعد عجزه عن
ادراكه نفسه وما كانت رتبته فى العلم لتدرك من جمال الطبيعة الا مظاهرها
الآخذة بالابصار النذيرة بذلك الجبروت الأعلى وليس فى الوسع الوقوف

على ذلك الملك الطاهر ذلك الروح الأمين

« عين الانسان فى الانسان » « وما أوتيتم من العلم الاّ قليلا »

ترمي بنظرك رميـة على جمال الطبيعة ومظاهرها فترمى هى قلبك بسهام الحب والهيام لناشئها ومحدثها وكيف لاتهيم بحبه وأنت كلما ألقيت عليها نظرة كلما رجعت جريح القلب بمـا تهديه اليك وتصوبه الى فؤادك من عيونها النجلاء فتود ان لو كنت أبداً مرمى سهامها ومحط أنظارها حتى تعطيك من دروس التهذيب العملية بما تفيضه عليـك من جمال جلالها مايتمم لك عواطف التكوين الانسانى بأوسع معناها ومن فقـد التأثر بعوامل عاطفة الحب لبارئه فهو ولا ريب انسان على نوع من التسامح

قال علماء الاخلاق

« الحب مبـدؤه نظرة تبعث شيئا من الاستحسان فى نفس الناظر فاذا علت كانت عشقا وهياما » تستحسن بعض الصور من مظاهر جمال الطبيعة فتتأجج بفؤادك نار الولع من طريق بخار حاد وكلما شيعت النظرة بأخرى تصاعـدت بفؤادك أبخرة نيران ذلك الاستعطاف الانسانى ونفذت بتصاعدها من مؤخرات التجويف الثالث الرأسى فتبدوا رسـل المحبة ناطقة بلسانك بمالك فؤادك والمسيطر على وجـدانك وتنفتح مصاريع خلوات القلب لتجعل مقاعد خيال المعشوق قبالة عين اليقين فتستلذ النفس بعبء المجاهدة بالنظر لذلك الناموس الطاهر

ثم تثور بنفسك همة الطلب بما ينقدح بفؤادك من نيران الشوق وكلما غالبتك أطوار العشق كلما كنت فى اطوارك كالذى يتخبطه الشيطان من المس فتتباين أطوارك وتتشكل صورك انسان ملك جماد فتبقى والهاً والهاً

تائها فى تجلى مظاهر ذلك الجمال وأنت تجهل كنهه الوضعى (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) الحب أصل من أصول قوام الجمعية الانسانية وحكم من تعاليم الاسلام واليه أشير بآيات كثيرة من الذكر الحكيم « يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله «ان كنتم تحبون الله فاتبعونى »

اغترف الغربى من الاسلام قسطا وافراً لابد منه في قوام حياته الأولى فعاد بنتيجة مسعاه رابحاً من ضروب الرقي المادى ما جعل له مكانة فى السماك الأعلى ولم يكن للمسلم ليتقلد شعار دينه بل أخذ عن الأوروبى تمدنه الغربى فأصبح كما تراه خاسر الحياتين

ما أحسن الاسلام وما أعدل أحكامه روح الهدى يدعو الى الجماعة ويشدد النكير على الفرقة أسها افراد واجب الوجود بالوحدة وبناؤها مساواة وإخاء والحكم اله واحد (انما المؤمنون اخوة) « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا »

على هذا قامت الشريعة الاسلامية ثم حددت أيات الله فى الكون من حيوان وانسان ونبات بحدود لم يكن للماديين أو الطبيعيين معها سبيل لتصويب سهامهم المحشوة بالاحلام الكاذبة وقد فتحت للناظرين بتلك الآيات المحدودة أبواب النظر ليجولوا فيها بحركتهم الفكرية حتى يجنحوا الى دين الله الفطرى فى الانسان حيث اطمأنت عقولهم وانعطفت مشاعرهم الانسانية بذلك النور الالهى الناطق (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) فما أدركوا اعتنقوا (ومالا) ردوه الى الله والرسول ليبين لهم صاحب الشريعة ماتشابه عليهم (انا أنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم) انظر كيف حدد الروح بهذا الحد الجامع المانع (الروح

من أمر ربى) وفى الاجمال ماقدمنا فلا يسئل بعد ذلك عن الحكمة فى عدم البيان بأكثر ماشرحنا ثم انظر كيف نزل بخيالاتهم الى حد يشعر به الانسان فى وجدانه (وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

أجمل الكلام فى الروح التى عجز النظار عن ادراكها بالكنه والحقيقة ليكون للانسان نذير من نفسه يبعثه على الاعتراف بتلك القوة قوة الإيجاد والتأثير في هذا الكون قوة صاحب الجبروت الأعلى وهذا هو داعى التكوين فى الانسان يدعوه للرجوع والانقياد الى موجد نفسه التى بين جنبيه (وفى أنفسكم أفلا تبصرون)

هكذا كانت آداب الاسلام للدعوة الى دين الله في وسط الجاهلية في كل ما يتعلق بالالهيات والنبوات والأمور الكونية وبهذه البراهين الناصعة قام الاسلام وانتشر التوحيد وبروح الجماعة سادت الأمة العربية على أمم العالم وبالانصياع الى تعاليم الشارع توفرت لهم كل وسائل الحياة الاجتماعية (العلم) « الصناعة » « التجارة » « الزراعة » « المال » « الملك والسلطان » ذلك لانهم قدعكفوا على أصول الدين وما كانوا ليأخذوه أيام كانت ربوع الجاهلية قائمة الابالعقل والتحكيم الفكرى المنطقى وما كان من قتال فهو للدفاع عن انتهاك الحرمات (ولا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم) (وان جنحوا للسلم فاجنح لهم وتوكل على الله) « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ)

هكذا أخذ صاحب الشريعة يناضل القوم ليلبسوا شعار الحياة الدينية والدنيوية بتعاليم الله أخذ يدعوهم الى دين الله بقوله (ياقومنا أجيبوا داعي الله) حتى صاص عليهم النور الالهى وأخذوا يدخلون في دين الله أفواجاً حتى نزل

عليه الروح الأمين « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا »

المحاضرة التاسعة

﴿ في الزراعة وتفسير قول الله تعالى ﴾

« فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صباً »
« ثم شققنا الارض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً »
« وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً وفاكهة وأبا متاعاً »
« لكم ولأنعامكم »

« قرآن شريف »

خلق الله من الماء كل شيء حي وما كان نظرك ليمر على شيء من عالم الطبيعة الا وتجد فيه من آيات التكوين مايبهر الالباب ويبعث في النفس نشوة الاعجاب بما تراه من عوالم الكائنات في تكوين عالم واحد فسبحان الذى أبدع نظامه على غير مثال فى الوجود .

الناس فى وحدة الوجود مذاهب وفي إدراك الموجد لهذا العالم فرق وشيوع وما لنا نتخبط وأمامنا من الطبيعيات ما يذلل صعاب العقبات فى السير وراء الحقيقة المصدرية ومن الاسراف ما تهذي به النفس وهى تجهل حقيقة تكوينها

وكيف يستطيع من عجز عن أن يبصر نفسه أن يبعث أشعة البصر

ليرى ماوراء المادة فى مكان أقصى فيدرك مصدر الكائنات على ضرب من التحديد ·

فهنالك مصدر أومؤثر تلك آثاره ومحال ان يعطى الشئ لنفسه الوجود والا كان متقدما من جهة صدور الآثار عنه متأخرا من جهة أنه أثر كونته يد الفاعل

اضطراب وتناقض محسوس لايخفى حتى على ضعيف الفكرة والادراك

عوالم الكائنات ثلاث نبات وحيوان وجماد وفى الأول مايوفر عليك مطية السفر ويغنيك عن الخوض في بحار أودية الاحلام الكاذبة

(وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل)

لم يدع الاسلام شيئا مما له ارتباط بالنظام العمرانى وكلما ألقيت نظرة فى أية قضية من التشريع رجعت بعلوم وفنون تحتاج فى تلخيصها لكثير من ضخام الاسفار

انظر معي فن الزراعة وكيف حدده القرآن وجمع متفرق الانواع على أبلغ صورة فى أقصر عبارة « فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً » الآية

كأنه بذلك يشير الى آية من آياته فى الكائنات ويعلمنا كيف نسلك سبيل العمل فى هذا الباب فننتقل من مقدمة الى أخرى على مقتضى النواميس الطبيعية فى ابراز الاعدام الى حيز مطلوب فى الوجود ·

بذرة كل شئ معطلة فى ذاتها ولم يكن فيها من مادة غذائية مايعطيها حياة أخرى تعطيها صورة جديدة

وانما لذلك عوامل متعددة متباينة لكل بذرة فى ماهيتها . وتلك العوامل هى مصدر التأثير السببي في ذلك الإيجاد الجديد .

والشيء يبد على نحو مادته الغذائية (ان الأصول عليها ينبت الشجر) والأصول فى التأثير ليست هي البذور وانما العوامل المائية والجوية والزمانية والمكانية والرئيس الأكبر فى ذلك هو الماء فهو الذى يبرز الاعدام من هوتها ويعطى البذور الحجرية مادة الثمر فكان مقتضى القوانين الطبيعية ان تتوحد البذور في أطعمة ثمارها وان تباينت فى أشكالها الصورية الوضعية

ولكن الله أبدع فى التكوين (صنوانٌ وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل)

شاهدنا بمقتضى القوانين الزراعية العملية وبحكم مانطقت به القواعد العملية ان كل نبات لايكون له ثياب الحياة الا اذا توفرت له عدة مؤثرات متحدة الوظيفة في نوع التأثير مختلفة الماهية (الماء) وهو مصدر عام فى حياة كل شيء لايتقيد بالنبات وهو أنواع كثيرة (ماء المطر)

ومنه تتولد مياه الانهار والعيون وهذا النوع متباين فى أطواره فان قلت كميته وكانت الأرض ذات جفاف غاص فى الأرض غورا ثم بدأ منها بالتصاعد تارة على حالة بخارية وهو مايسميه العامة (بالشبور) وتارة يتلبس بالنباتات ثم يبد منها بخارا متصاعداً وتارة يغوص في الأرض الصلبة النارية فتلتقطه تدريجاً حتى لايكون له أثراً ولا يجد مسربا للتصاعد البخاري وقد يصادف قطعاً من الأرض فتكون عيونا تتفجر منها المياه . أما اذا كانت الارض رطبة متشبعة بمياه الامطار وكانت شديدة العمق غائرة الى حد محدود انحدر الماء على وجهها ويتولد من ذلك منافذ تجرى فيها المياه

فتصب في الانهار والبحار

وكلما انبعثت المياه في جريانها على وجه جزء من البسيطة في الهواء تتلت سيئا مما يسمونه «بالازوت» أو «الأوكسيجين» حمض «الكربونيك» وثمة أنواع ثلاثة (الماء المالح والماء المر وماء الآبار) وكلا الاولين لا يصلح للري كما ان المياه الحديدية والكبريتية لا تتفق مع مصلحة النباتات وليس وراء ذلك الا المياه العذبة فهي تطفئ الحرارة الارضية في زمانها بما تكتسبه من التسخين الناشئ عن الاشعة الشمسية فتتقهقر مع ذلك التسخين قوة الحرارة الارضية . ثم تتحول الماء الى أن يصير بخاراً بما يلتقطه بعد الغور في طبقات الاراضي النارية

واذا تنازلت الحرارة تنازلا ما واستحالت الى درجة معينة من التبريد تجاذبت البذرة النباتية تجاذبا مألوفاً فيتولد من ذلك نمو تلك البذرة تدريجا بواسطة عوامل التأثير حتى تكون شجراً مورقا وثمراً يانعاً يبهر العقول بنشأته الطبيعية

وكما ان المياه تنزل بالحرارة تنازلا مّا في زمن اقتضاءها فهي كذلك تعطي الارض حظاً من السخونة في زمن الشتاء بما يكون لتلك المياه من الحرارة المتولدة عن الأشعة الشمسية فيكون التجاذب الطبيعيُّ لاحياء الارض بعد موتها (ان في ذلك لعبرة)

ويقول علماء الزراعة ان البرد اذا اشتد وعلا وجب مضاعفة الماء ليغور في طبقات الارض فيكون وقاية للنباتات من تأثير البرد بما في الماء من حالة التسخين المكتسبة من الأشعة الشمسية والا لوقلت الكمية المائية فانها تتجمد وتكون ثلجا بادياً على وجه الأرض فتنكشف الجذور

وتنعدم النباتات

ويقولون أيضاً ان الارض اذا جفت انعطفت أوراق النباتات الى أسفل أما اذا أخذت نصيبها من الرى ونفذ الماء الى طبقاتها اكسبها ذلك رطوبة يتم بها ظواهر التحليل والاذابة والاستحالات الحادثة فيها فلا يكون هناك سبيل الى تحليل الاسمدة وتفاعل العناصر المعدنية وكلما غاص الماء غوراً فى منسوج النبات حمل اليه المادة الغذائية التى أذابها من الأرض عامل عنصريه (الاوكسيجين والايدروجين) للنباتات التى ينفذ فيها

قلنا قبل لابد للنباتات من عدة مؤثرات وذكرنا منها الماء . ثانياً الحرارة أو الضوء فانهما عاملان عظيمان فى قتل الرطوبة بما لهما من القوة البخارية ولذلك قرر العلماء ان حاجة الرى فى البلاد الحارة أشد ضرورة منها فى البلاد الباردة ثالثاً ـ طبيعة الأرض شرط كبير يجب الالتفات اليه فليست كل قطعة من الارض تصلح لان يبذر فيها ماشاء الانسان من النبات كلا فالارض نوع واحدولكنها تتباين في طبيعتها تبايناً لا يتفق مع كل بذرة من البذور وكذلك ليست الاراضى سواء فى الرى بل منها ماينفذ له الماء ويسخن بسهولة كالاراضى الرملية والجيرية فهذه أكثر انتفاعا بالرى من غيرها ومنها مالا يفيدها الرى كثيراً كالاراضى المندمجة الطينية لما لها من كثرة الرطوبة التى تضر بالانبات وليس الرى مباحاً في كل زمن بلا شرط ولا قيد بل ربما تباينت ساعات النهار اصلاحاً وفساداً وخير الزمن بكرة اليوم وأصيله وليس هناك أضر مما يعمله الزرّاعون في أكثر أحوالهم يدعون الماء كالفيضان فى وقت الظهيرة يظنون ان ذلك مما يبعث فى الارض نشأة الحياة بما للماء من التبريد فتطفئ حرارة الشمس وتسلطها

على الاثمار النباتية فتكون الاوراق زاهية والاثمار يانعة عوضاً من أن تكون ذابلة ضئيلة بما يلحقها من أشعة الشمس النارية عبثوا بهذا وما دروا ان تسلط الماء البارد على النباتات فى وقت الظهيرة وما لها من سلطة الحرارة المتولدة عن الاشعة الشمسية مما ينجم عنه تغير فجائى

تتسلط برودة الماء على تلك الحرارة القائمة بالنباتات فتطفئ تلك النيران الموقدة فى أصول البذور النباتية فتصبح حطبا رماديا تذروه الرياح بدلا عن ان تكون نباتاً ينمو ويتكامل ـ رابعاً مراعاة الزمان فليست نباتات الصيف تصلح فى الشتاء ذلك لان الله قد جعل للجو من وظائف التأثير ماتتباين بتباين الزمان ولذلك ينسب الزراع بعض النباتات الى أزمانها فيقولون الزراعة الصيفية الزراعة الشتوية عملا بقاعدة سنة الله فى التأثير

ترى بعض النباتات لايشب ولا يستحيل ثمرا يانعاً الا اذا تسلطت عليه الوظائف الجوية فلا ينضجه حتى يجني ثمراً الا انبعاث الاشعة الشمسية كزراعة الاقطان مثلا والعكس بالعكس فى الزراعة الشتوية ـ خامساً « الهواء » فانه اذا نفذ الى طبقات الارض حتى سرى الى الجذور النباتية أكسبها معنى الحياة كما يجدد للمريض المسجون روحاً جديدة فكما ان ذوات الارواح لاتقوم الا بالهواء فكذلك السنة فى النبات فسبحان من أبدع النظام وخلق في كل شيء مادة قد جعل لها من الربط فى الحياة مالابد منه في بقاء العمران

قلنا فى هذه الكلمة من (المدنية فى الاسلام) ان الشريعة الاسلامية لم تدع شيئا مما يتعلق بالجمعية الانسانية الا شرحت أبوابه وحددته تحديداً لا يقبل الخفاء .. ورأيت داعى الكتابة يسرى بى شيئا من الاسراء فى

فن الزراعة وهو باب (أكثر التصاقاً بالحياة العمرانية) ولما كانت سعادة بلادنا الشرقيـة قائمة فى رقيها المادى على زراعة الاقطان رأيت ان أذيل كلمتى (المدنية فى الاسـلام) بكلمة تحوم حول تلك الزراعة كما هو مقرر محسوس من ان مناط المدنيـة المادية فى بلادنا يرجع الى الاعتناء بزراعة الاقطان حتى ترى الفلاحـين يعلقون كل أمانيهم على محصول القطن ويبنون حصونهم من السعادة على مايجنونه من ثمار أعمالهم فى هذا الباب

كان للعرب عناية عظيمة بزراعة القطن وقد سادت فى الأندلس فى عهد السلطان عبـد الرحمن وسرى ضوءها الى البلاد الجنوبية من أوروبا ومصدر هذه البذرة وأصل شجرها من الأيالات الحارة لبلاد الهند وبلاد البربر وجزائر انتيلة بأمريكا

وله أنواع كثيرة خيرها (القطن البلدى أو الحشيشى) وهو لايشب على سطح الارض كثيراً ويزرع هـذا ببلادنا الشرقية والولايات المتحدة وأسيا الصغرى وبلاد العجم وهناك نوع آخر وهو القطن الشجيرى ولا يزيد عن مترين علوا ويزرع بالديار المصرية وبلاد الهند والصين وأمريكا . وابتدأ المصريون يستمدون مدنيتهم المادية من هـذا النبات فى عهـد جنتمكان الحاج محمد على باشا جد الاسرة الخديوية روى انه فى سـنة ١٨٢٠ أمر الموسيو « جوميـل » العالم الزراعى الـكبير أن يجول فى بلاد الهند لاستصحاب بذور القطن فجال جولته بتلك البلاد وأوفد معه ماشاءالله أن يستصحبه فى تلك السياحة وبدأ المصريون يحكمون التجارب فى زراعة تلك البذور الغريبة تحت جو هذه البلاد وبدت النتيجة على اختيار الاراضى التى تسقى بمياه النيل من غير تحمل لـكثير من المصاعب كالجزء الجنوبى من

أرض البحيرة لعلو درجة الحرارة فيه عن الجزء الشمالى

وقد كتب الكتاب شيئا ليس بقليل فيما يحوم حول زراعة الاقطان من تلك الآفات العدوانية ... ولو انا عرفنا للفضيلة حقا لما حددنا على الحكومة عوضا مفروضاً تقدمه الينا ثمنا في مصادرة ذلك التيار الجارف وننشر ماوهبنا الله من العلم لان الحكومة التي هى جزء من جسم الامة والامة التى هي جزء من جسم الحكومة فرد واحد متكرر لايقبل التجزئة فيما ينزل به من ضروب السعادة أو الشقاء .. فاذا علقنا الدواء على العوض كنا مثل رجل قد علمه الله شفاء نفسه ولكنه كان من أحرص الناس على المال فآثر امساك مابيديه على بذله فى سبيل شفاء نفسه حتى عاجلته المنون وقضى نحبه خاسر الحياتين الأولى والثانية

ولقد كان لي مع شقيقى الأكبر مأمور مصلحة الاراضى الاميرية حديث طويل فى هذا الباب فقال لى مامعناه ليست هذه الحشرات من نوع الآفات السماوية التى قد أمطرتها الكواكب الوضاءه من عالم الملكوت الأعلى ولكنها أمة أرضية قد تولدت من برنامج الفلاح المصرى الذي قد وضعه أساساً للطرق الزراعية

يبدأ الفلاح فيرمى ببذرة الزراعة النيلية ثم يتلوها بزراعة البرسيم وهذه الجذور بطبيعتها المادية من الرطوبة تهيئ الارض وتجعل فيها نوعا من الاستعداد لتلك الآفة الارضية حتى اذا مابذرت تلك النباتات القطنية تلقتها الأرض بما حوت من تلك العادية التى قد اتخذت لها مكمنا حصيناً بذلك الصنيع الزراعى الشرقي فى بطون الارض . يبدو ذلك الحيوان من عالم الخيال أو العدم ويتشكل فى تكوينه بأطوار متباينة حتى اذا ماتم

خلقه صال صولته على تلك النباتات التي هي كل آمال الفلاح البائس فتفقده الماضي والحاضر وتصبح صروحه المادية خاوية على عروشها فيرجع خاسئا وهو حسير وليس ثمة من الدواء الا حكمة فردية تلك هي انه بعد الزراعة النيلية يجب أن يضرب الفلاح عن زراعة البرسيم ويستغني عن نتائجه العقيمة التي تفقده طود أعماله السنوية ويدع الارض لتستريح تلك المدة الزمانية لزراعة البرسيم ثم يحرثها المرة الأولى ويتلو هذا الصنيع باهمال الماء فيها ليطهرها من بقية ماولدته الزراعة النيلية ثم يسقيها بعد ذلك بزيت البترول ويعطى للفدان الواحد نصيبامفروضا مع قدر معين من الماء أيضاً حتى تقتل تلك الجراثيم التي لابد وان يكون لها بقية ثم يجري بعد ذلك على سنن القوانين الزراعية من حرث الارض ثانية وثالثة الى أن قال وقد شهد على تحقيق بعض هذه النظرية ماسلكته يومئذ كنت مفتشاً بنظارة الداخلية لابادة هذه الحشرات فانها لما قامت على الزراعة القطنية بعد ان آنسنا منها خيراً صادرناها بزيت البترول ولم يهزم ذلك الجيش الا هذا الاسطول الواحد الحربي الذى لايكلفنا من المال شيئا كثيراً

هذا ملخص كلمته في هذا الباب ..... وانا لو نزعنا عن أنفسنا ثياب التقليد الأعمى وقمنا نجعل للتجارب رأيا وتحكيما لما لبثنا شيئا من الزمن الا وعدنا رابحين لنتائج أعمالنا التي هي كل أمال الفلاح الشرقي ولأخذنا من القواعد العلمية حظاً وافراً من وراء تلك التجربة العملية

ولم يكن شقيق هذا مع أصالة رأيه وبعد نظره في علم الزراعة كما شهد له بذلك كل عارفيه من رجال الحكومة المصرية الزراعيين شرقيين وغربيين حتى كان في مقدمة الذين قد أدركوا امكانته العملية الزراعية . ذلك

الرجل العمراني الكبير والعالم الزراعي الذي قد أوجد لنفسه بعمله صحيفة عمرانية جليلة في تاريخ مصر الحاضر « سعادة المرحوم برش باشا العضو الانكليزي السابق لمصلحة الدومين وصديق مصر والمصريين »

لم يكن شقيق هذا المشهود له بتلك المكانة الزراعية ليأخذ دروسه الا من طريق العمل والتجربة التي هي الواضع الاول للقواعد الزراعية والوازع الرئيسي في الانصياع لفروعها العلمية وكل ما وراء النقل من العلميات فأصله ثابت بالقانون التجربي العملي وما الحياة العلمية الصحيحة الا فيما تمليه عليك آيات الله الكونية في الوجود

المحاضرة العاشرة

﴿ في الاقتصاد وتفسير قول الله ﴾

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا »
« تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً »
« قرآن شريف »

كذلك تكون الشرائع حكيمة فيما تبذر من الأخلاق في نفوس بني آدم وبما ترسمه من التعاليم مما يحفظ للانسان قوته المادية التي يسد بها فراغ الحاجة عند نزول الغوائل ومنايا الايام به

والجو لا يستمر على صبغة واحدة ترى الصحو قد استوى على عرش السماء بذيوله الناصعة الوضاءة واذا أتبعت النظرة بأخرى رأيت غيوما متكاثفة قد حلت محل ذلك الضوء الساطع وربما كان الجو في زمن واحد

متباين الاطوار باكيا ضاحكا تسبح فيه الغيوم وتسير فيه أفلاك الضياء فتكون تحت قطيع من السماء بحال لم تكنه اذا انتقلت أورحلت الى آخر تلك سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

على هذه النواميس الطبيعية في الكون كان الانسان في جميع أطوار حياته . حزن ساعة وفرح أخرى شقاء تارة وأخرى سعادة . جهل وعلم . غنى وفقر . قبض وبسط . عز وذل . تقدم وتقهقر . كلها أعراض تعرض لبني آدم في أطواره الحيوية فاذا الانسان انقاد لنفسه بلجام هواه وقع تحت أنياب تلك الاعراض وتناوبته سموم أفاعيها فيعيش هذا العمر القصير وهو كعبة آمالها ومحط أغراضها ومرمى سهامها تجيد فيه الرماية وتعبث به في كل حين

هذا هو شأن الانسان اذا استسلم الى قوته الشهوية وليس وراء الله حكيم في مداواة ذلك المرض النفسي .

قلنا في مقالاتنا الأولى من المدنية في الاسلام ان الانسان في أخلاقه أثر للقوة الغالبة من قواه الثلاث المتنازعة وهو واحد بعد ذلك من ثلاثة رجال « ملك أو سبع أو خنزير » والوسط في الناس قليل من الوجهة الاخلاقية والعظيم أقل فلم يبق وراء ذلك الا الصنف الردئ وهو على مانشاهد السواد الاعظم في كل أمة

ولقد عرفنا بطريق الاستقراء أن الانسان يميل الى الشراهة بحكم طبيعته البشرية فلا اعتدال في الاخلاق ولا توسط في الحاجة ولا اقتصاد في الاموال فهو أحد رجلين اما جبان أحمق يمسك مابيديه حرصاً على الحياة الموهومة وإما فاجر تصول عليه نفسه الاثيمة فينساق معها في تيار

الشهوة ثم يبدو من جوف ذلك الليل القاتم خالى الوفاض فيصبح عالة على عاتق الأمة

لذلك خوطب صاحب الشريعة الاسلامية والخطاب له خطاب للأمة : لا تمسك ولا تسرف وكن بين ذلك قواما (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً)

عظم الاسلام هذا النوع من المدنية الاقتصادية فقال الحكيم الأعلى (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال صاحب الشريعة (انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم (ما أحسن القصد فى الغنى وما أحسن القصد فى الفقر وما أحسن القصد فى العبادة) وقال ابن الخطاب (ان الله يحب القصد ويكره السرف والتبذير) وقال رضى الله عنه (اصلحوا أموالكم التى رزقكم الله . فان إقلالا فى رفق خير من إكثار فى خرق) وقال أبو بكر رضى الله عنه (انى لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام فى يوم واحد) وقال أحيحة بن الجلاح

كل النداء اذا ناديت يخذلنى   الا ندائي اذا ناديت يامالى

وقال بعض الحكماء من ملوك الغرب وان كنت لا أوافقه على كل ماتنطق به عبارته (أفضل ان أرى رعاياى يضحكون على بخلي من أن أراهم يبكون على اسرافى) كلمة من الحكم لا نوافقه على شئ منها ذلك هو النزول بمرتبة الاقتصاد الى خسة البخل حتى وان كان على سبيل المبالغة فى مرأى الخيال وانما الاقتصاد التوسط فى كل مقومات الانسان الحيوية بحيث يكون ذلك معروفاً فى الاخلاق فلا يمسك مابيديه ولا يبذر وانما

يكون كما علمنا المشرع الاسلامى (بين ذلك قواما) هكذا كانت تعاليم الاسلام للأمم في ريعان شبابه ولا يزال هذا المعلم قائداً حكيما لبنى آدم فى كل بلاد الدنيا وان كان البعض لا ينتسب إليه بل ولا لأى دين سماوىّ ولكن نور الشريعة الاسلامية قد اخترق حجب الجهالة بما سطع به على أمم العالم وأخذ المتدينون بأديان آباءهم التى كانت لا يذهبون فى نواميس حياتهم الأولى الا على نحو تعاليم الاسلام وأولئك هم حكماء أوروبا يؤلفون الاسفار الضخمة فى أخلاق الاسلام وكيف قامت أوروبا بدروسه الحكمية راجع ما كتبنا فى هذا الباب فى مقالاتنا (الرابعة والخامسة والسادسة) جاء الاسلام بكل ينابيع الحياة الاجتماعية ولكن المسلمين قد انزووا عن دينهم بما زل بهم من روحى التمدن الاوروبى فباؤوا بغضب من الله (وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)

هكذا علمتنا الحوادث فى القرون الأولى شأن الامم التى قد اعتزلت دينها وهجرته باسم الدين ومبلغ ما حاق بها من وراء ذلك من ضروب الذل والصغار بعد أن كانت أيام تمسكها بالدين راقية عرش السلطان والملك ظافرة على أعدائها بوحدة كلمتها والتوجه فى أعمالها الى قبلة دين الله التى شرع الله لا يثنيها عن ذلك هذا الزخرف الباطل ولا يزعزع ثباتها عن العمل بروح الدين أفاعيل النفس الداعية الى التقهقر النازلة بضعفاء العزيمة من مكانة الانسانية الى أطوار البهيمية المحضة واليك كلمة عن الدولة الرومانية نشرت هذه الدولة على أمم العالم لواء المجد والشرف ودانت لهم رقاب الجبابرة فى الامم والشعوب وكانت لهم الفتوحات الكثيرة وما بلغوا الى مدارج الفلاح والنجاح وعرجوا الى سماء العز والسلطان الا باقتفاء أثر

الدين ثم أخذ هذا الجسم ينحل عن اجتماعه وتركيبه التأليفي الديني شيئاً من الانحلال بفضل الانتقال الى طور المدنية والحضارة النفسية فانقلب ذلك الرقى الأدبي والمادى عالماً من التعاسـة لقبه بما شئت من ضروب الذل والهوان أخذوا يجنحون الى عيشة البذخ والاسراف وفاء بحق شهواتهم النفسيه وضربوا عن الدين بسيف العصيان فضرب عمالهم عن طاعتهم وكان جسم الجماعة يومئـذ قطعاً متبعثرة لايستطيع ان يبرز الى ميادين الحروب ليرجع أولئـك الخارجون تحت ظل الحظيرة الرومانية فانحلت إثر هـذا الانشقاق الدينى قوتهم واعتلت سياستهم بفضل اهمال نواميس الشريعة التى هى روح الشهامة والسعادة فى كل أمة

وهؤلاء هم المسلمون فى صدر الاسلام قد رفعوا لواء السلطان والملك من أقصى بلاد العرب الجرداء الى بيت المقدس وليس قائدهم فى كل تلك الفتوحات الا مايضئ أمامهم من أنوار الشريعـة المحمدية ذلك هو داعى الفضيلة فيهم ومحرك تلك العواطف الحجرية والاحساسات البدوية فانصرفت الى روح العمل والجهاد وتسابقت فى فناء النفس لا لتأخـذ أجراً عاجـلا ولـكن هو التفانى لمحض أن تـكون كلمـة الله هى العليا وقـد قال ملك قيسرية احـدى مدن الروم مامعناه « لست أستطيع النصر على هؤلاء الحفاة العراة الا بإفساد أخلاقهم والقضاء بأيديهم على روح شريعتهم » فبعث لهم عـدداً من العذارى الغانيات لينكثوا على أنفسهم بالاشتغال بهن والتغزل بجمالهن فـكان كلما عرضت الغانية الرومانية سلعها على الجنـدى العربى أعرض عنها فعاودته وهو لا يتوجه بوجـدانه وعطفه الانسانى الا لسماع نداء ذلك الوازع الحـكيم صاحب الشريعة الاسلامية

يتوجه لسماع هذه التعاليم المحمدية ويدبر عن تلك الغانية الرومانية قائلا « والله ان عدت الى مثل مافعلت لشطرتك بهذا السيف شطرين »

وهذه هي الدولة العباسية تمسكت بأصول الشريعة ورفعت رايات العلم وبذلك اعتز سلطانها وأزهرت مملكتها ثم أخذتها نشوة الاعجاب بنفسها فطغت واستبدت وقلدت المناصب لغير ذويها ومن هنا أخذت الدولة العربية تتدرج في مهاوى السقوط من أواسط المائة السادسة وهوت الى حضيض التعاسة بمحض مسعاها إثر هجوم القائد التترى (جنكزخان) الذى هو فاتحة تاريخ الشقاء على الأمة العربية وقل عن العرب فى الأندلس ماقلت فى الدولة العباسية فكانت نتيجة العزلة عن الدين الخيبة والتقهقر بعد العز والسلطان وقام الأفرنج فى الساعة التى جلس فيها ملوك العرب وأمراؤهم على ساحة الملاهى وبين الغانيات الحسان يجمعون كلمتهم وطاردوا المسلمين وأذاقوهم لباس الجوع والخوف وأنشأ الاسبانيون محكمة التفتيش لمحاكمة المسلمين (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وتلك دولة اليابان فما علت هذه على عرش السلطان وانتصرت على دولة الروس الا بانصياعها لملكيها الذى هو مركز روح الآلهة فى اعتقادها وكان الدافع بنفوسهم الى حومة القتال وساحة الوغى عقيدة التحول بعد الموت الى عالم روحي أرقى من الحياة الأولى

ذلك هو سبب هذا الداء القتال الذى فشى وباءه في جسم الأمة الاسلامية تركوا الدين وراءهم وسلموا عقولهم لشيطان الهوى فكانوا أكثر الأمم تخريفاً فترى السذج البسطاء منهم ينصتون لصوت الخرافات ينعق في أنديتهم وأصبحت عقائد الدين غريبة عنهم حتى شوهوا أصولها

بما سرى الى رؤوسهم من تلك الأضاليل التى لم نعرفها الا فى الأمم الوثنية وترى صنوف الجبن ضاحكة فى جبينهم وآيات الذل والصغار مرتسمة على وجوههم بما صنعوا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ذلك بأنهم قوم لا يفقهون)

هنالك نظرة أخرى وهى أن الاسلام عدو الأوهام فلا يعوّل فى سبيل تحديد ماهيات الكائنات وتعليمها للانسان الا على اليقينيات المحضة ذلك لأن أكبر ميزة فى الانسان هى سعادته الانسانية وما كانت له هذه النسبة الا باستخدام قواه الفكرية فاذا هو أهمل وظيفتها واستسلم فى السير لرسل الاوهام وعوامل الظنون نزل من ذلك المكان الأقصى (رتبة الانسان) التى لو سمت فى معناها باستخدامها فى وظائفها الشرعية لزاحمت الملائكة فى مراتبها الروحية القصوى الى حضيض البهيمية

من أجل ذلك نهى الاسلام عن السير بعامل الاوهام التى لا تغرر الا بفقراء العقول فقال (وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله) ليشير بذلك الى انتشار الرذيلة فى العالم وانها لتزيد فى التوازن عن مقابلها وتلك هى سنة التفاضل بين الخبيث والطيب قلة وكثرة (والحر فى الدنيا قليل) ثم علل مايلحقه من الوصف باطاعتهم ان هو قد أطاعهم بقوله (ان يتبعون الا الظن وان هم الايخرصون) ليبين مصادر الشقاء وما يتولد عن الاخذ بعامل الظنون والاوهام (واذا ضل الانسان عن سبيل الله فأى رجل يكون لاريب فى أنه بهذا الوصف قد خرج عن أطوار الانسانية وصار نوعا بعينه لا يعنون عنه بأى كائن فى الوجود اذا هو لم يلحق بالبهيمية المحضة

واذا عم هذا الوصف فى كل أفراد بنى آدم وكان الناس أمة واحدة بهيمية فلا بد وان ينقض بناء الجامعة الانسانية وينقض عقد الحياة التى هى القوام الفرد فى استبقاء هذا العمران فى الدنيا أجلا محدودا

وهل أدرك المسلمون سر مانطق به الاسلام فى هـذا الباب (ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) كلا ولـكنه كلام يتغنى به فى الحانات والشوارع وصار من الادوار المبتذلة وترقي المسلمون فى الاستهزاء بدينهم الى حد أن جعلوا القرآن اسطوانة «فنوغرافيـة» يتخذونها فى وقت الصفاء للطرب ولا يتخذون اسطوانة القرآن الابعد تغذية نفوسهم بأدوار «عبدالحى والشيخ سلامه» ثم يذيلون طربهم بالاسطوانات الهزلية والقرآنية

لعمرى إن قوماً هـذا شأنهم من الاستهانة بأمر دينهم ليستحيل عليهـم أن يتقدموا خطوة الى الامام على نحو مايزعمون من الثرثرة المـكذوبة التى نسمع صدى صوتها كل يوم ولحقيق بمثل هؤلاء أن تسترق قلوبهم ورقابهم بالسلاسل والاغلال لان الحرية الحقيقية قد فقدوها بالرق لأنفسهم وانصياعهم لشهواتهم

إن قوماً قد استرقتهم شهواتهم ونبذوا الدين باسم الدين وانشقوا عن ولاة الأمر منهم باسم الوطنية ولبسوا ثياب الوحشية باسم المدنية وحاق بهم الفقر المادى والعلمى باسم البيكاوية حتى أصبحوا وقد رهنوا أجسامهم للبنوكة الأوروبيـة وتفرقت كلمتهم وفقدوا روح الثقة ببعضهم وتنابذوا بالالقاب وتفاخروا بالاحساب . قوم هـذا شأنهم يلوكون اسم الدين بأفواههم وهم عنه بعيدون يصيحون باسم الوطنية وهم لها لايعملون بل

يقولون ثم يظنون انهم بذلك أصبحوا أحق الامم بالحرية والاستقلال يجدر بهم أن يصحوا من ذلك النوم العميق فيفقهوا مقاصدهم وما يضعوه امامها بأيديهم من العقبات الوعرة . يظنون أنهم بذلك يسلكون سبل الحياة فى الوقت الذى يضعون فيه بذور العطب في طريقهم حتى أصبح الرجل الأوروبى يسخر بعقولهم وان الانسانية الحقة قد انحصرت فى تكوينه (وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم) وما ربك بظلاّم للعبيد (ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزيه)

الباب الاول

﴿ فى الكلام على نزعة العرب فى الجاهلية ومدنيتهم بعد الاسلام ﴾

(وفي ذلك محاضرات)

المحاضرة الاولى

﴿ من الباب الأول ﴾

(فى تهذيبهم العلوم وتنقيحها بعد الأمة اليونانية والاشارة الى قول الله)

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »

« قرآن شريف »

خلق الله الانسان على أحسن تقويم فكان بجماله من أكبر مظاهر الله تعالى في الوجود

ومن ألقى نظرة صحيحة فى هذا النوع من الكائنات يرى أنه يتباين فى أطواره تبايناً بعيداً بقدر نسبة ماله من العلم

كان الانسان وكانت ميوله بمقتضى فطرته نازعة الى الحرية جانحة الى الاستقلال نافرة من الاستئثار

عالم برأسه فخور بنفسه له من القوة المفكرة مايدبر بها الغلبة والسلطان على كل كائن فى الوجود

ولقد كان العرب قبل الاسلام على ماقلنا فى النسبة فى الانسان قوم أبعد عن سياسة الملك لأنهم أكثر بداوة من الامم والانسان مرآة مايعيش تحته من الجو ظلمة وصحواً فكانوا بمقتضى جوهم الذى يعيشون تحته أميل الى الشر منهم الى الخير وبحكم جاهليتهم كانت الفوضى سائدة فيهم حتى جاءهم الوازع الحكيم وبعثهم خلقاً جديدا

سرى فيهم سر ذلك الروح الأمين فأصبحوا يتسابقون فى مضمار العمل على نحو تعليم الشارع فساد بينهم من المدنية الأدبية والمادية مأأخذ بهم الى أقصى مقاعد علماء التشريع فى هذا الباب (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم)

نزل الوازع بأندية العرب وهم غرقى فى بحار الوثنية والجهل وخط لهم طريق السعادة فسلكوها وابتدأت حركة العلم والفلسفة تجرى بمائها العذب فى تلك العروق الظمأى

وكان للسر القرآنىّ تأثير عظيم فى تلك القلوب القاسية فانهار بناء الجهل وبدت شموس العلوم الكونية على اختلاف أنواعها حتى فاضت على أمم العالم فأصبحت السطوة العلمية الفردية للامة الاسلامية واتخذوا

بغداد عاصمة لها بعد ان كانت تلك السطوة لليونان .

أجل بلغ اليونان مبلغاً عظيماً من العلم وكانت لهم الكليات العتيقة والمكاتب الضخمة

ولكن العرب لم يقفوا بنور العلم عند الحد الذى وقف عنده اليونان « كلا » ولكنهم نقحوا العلوم وهذبوها وقد زادوا عليها من أسرار البلاغة وبليغ الحكمة مالم تصل اليه الامة اليونانية مع عظيم سلطانها وكبير سطوتها فى العلوم والصنائع « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده « قرآن شريف »

تقول الحكماء ان النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة وان خروجها من عالم القوة الى عالم الفعل انما يحدث لها بما يتجدد من العلوم والادراكات حتى تكون ذاتاً روحانية فكلما أخذت من العلم نوعاً أفادها ذلك ملكة جديدة حتى يتكون من تلك الملكات المتباينة بتباين المدركات قانون علمى ترجع اليه الخبرة بالمسائل العملية كان هذا القانون للعرب بعد الاسلام لأنهم اتخذوا صاحب الشريعة قائدهم وكتاب الله رائدهم فعلمهم من أصول الحكمة مايكفل لهم السعادة الاولى والثانية

علمهم قيمة الانسان وأن ما كان فى الكون ما كان الاله وأبان لهم فضل العلم بجانب الجهل والخبيث بجانب الطيب وان هذا الدين لا يعبأ بالشكوك والاوهام وانما يعتمد الحجة والبرهان قال تعالى (قل لا يستوى الخبيث والطيب) (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (وسخر لكم مافي السموات وما فى الأرض جميعاً منه) (وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا

يخرصون) (ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) علمهم الصبر والثبات فى الاعمال . فرض حكم الشورى بينهم سن لهم سنة الاعتدال كما حظر الظلم . أمرهم بالنظر فى ملكوت السموات والأرض أطلق عنانهم فى عالم العلم (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) (وقل رب زدنى علما)

شرع لهم سنة الإخاء وقرر حكم المساواة وانه لافضل الا بالعلم وما التفاضل الا بالعمل أخلاق إلهية قد طبعت في تكوينهم بعد ان غاصوا بحارها العميقة حتى كانت لهم من العلوم الكونية والصنائع الفنية ماأكسبهم تلك السطوة وذلك السلطان مع قلة عددهم وعددهم (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) كانت المدنية الأدبية فى العرب بعد الاسلام كما كانت المدنية المادية ولم يدعوا من الصنائع قليلا حتى حرفة الوراقة والكاغد فكان للدواوين والسجلات فى الملة الاسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس وكان للعرب عناية مخصوصة بهذا المعنى ولما انفجرت عيون التأليف والتدوين وضاق بينهم الرق بعد ان اقتصروا عليه ردحا من الزمن أشار « الفضل ابن يحيي » بصناعة الكاغد وصنعه وتوارثه الناس من بعده صحفا للمكتوبات السلطانية ـ أما صناعة الغناء وهى التى تحدث بالنفس نشوة لما يدركه السامع من تلحين الاشعار الموزونة والأصوات الملائمة لذوقه فتتأثر بها النفس اذا ماناسبت مزاج الروح القلبي وتتألم اذا هى نافتها كما هى السنة فى بقية الحواس .

أجل ان مرجع التأثير فى الروائح والملموسات انما هو مزاج الروح القلبي البخارى . أما مرجع المسموعات فتناسب مزاج الروح مع تناسب

الأوضاع فى مراتبها وأشكالها .

تجد نفساً تهيم بأخرى فتذهب مذهب الغلو والاغراق فى حبها لم هذا (ياترى) ذلك لانها اتحدت معها فى المبدأ

وربما تخيلت النفس المحبة جميع أطوار الأخرى فضائلها ورذائلها كمالا بل ربما وهمت في غلوها فزعمت كينونة العالم الأعلى فى ذلك الوجود اتحاد فى المبدء تريد النفس به ان لو خرجت من حيز الوهم فتكون خلقاً آخر منطبعا فى ذلك الوجود

أنسب الكائنات للانسان هو الانسان فى شكله الوضعى فاذا تأثرت نفس بحب أخرى فانما هى تأثرت بحب نفسها فى ذلك الوضع الانسانى

هكذا كانت سنة الائتلاف والاختلاف بالملائمة والمنافات فكلما كانت الاصوات متناسبة جنحت اليها النفس والا أدبرت عنها

كانت هذه الصناعة سائدة فى العجم وكان لملوكهم عناية مخصوصة بالعارفين بها أما العرب فكانوا بفطرتهم شعراء يجمعون الكلام على نحو مألوف ويقطعونه أجزاء كل جزء مستقل بالافادة عن غيره فيسمون هذا بسيطاً وذاك منسرحا ويترنمون به فى غناءهم ويتشجعون به فى معارك الحروب وفى تجمعهم للتفاخر بالاحساب والانساب

هكذا كان العرب فى الجاهلية قبل الاسلام فلما نزل بهم الوازع الحكيم لم يجدوا من الفراغ مايساعدهم على الغناء وكانت وجهتهم كتاب الله وقد كانت تغلب عليهم سنة الطبيعة أحيانا فيترنمون بالشعر بفطرتهم التى كانوا عليها فلما انتقلوا من طور البدوية فى الجاهلية الى عالم الحضارة والترف ووفد اليهم المغنون من الروم والفرس وأسمعوهم غناءهم بالآلات المستعملة عندهم

ذهب العرب مذهبهم فى التلحين بالاشعار وانتشرت هذه الصناعة فى أنديتهم وأخذت بها سنة الانتقال من طور الى طور حتى كان لها شأو عظيم أيام بنى العباس عند ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق وابراهيم بن المهدى وغيرهم وهذه الصناعة انما تنبعث لها أشعة الابصار فى الامم بعد ان تتخذ لها المكان الأقصى فى الحضارة والترف وما كان لذلك من سبيل الا بعد أن يؤسس العمران على أساسه المتين وكما أنها نهاية العمران فى الامم فهى مبدأ الخراب فيها سنة الله فى الكون (ولن تجد لسنة الله تبديلا)

بلغ العرب فى المدنيـة ماعامت من تعليم الشارع لهم وقد سطعت شمس هذه المدنية على أمم العالم لاسيما وانها مالت ميلة على الأمة الغربية فكان لهم حظ كبير فى العلوم الكونية والصنائع التى تلقوها عن الأمة العربية بما علمها القرآن

أخذ الغربيون يعملون على وفق مارسم صاحب الشريعة الاسلامية فسادوا على الأمم حتى على الأمة الاسلامية التى قد انعزلت عن الدين باسم الدين

عرف الغربيون سر الله فى التشريع فوقفوا عنده حتى أصبح الواهمون من الناس يظنون ان الامة الغربية هى مصدر الاختراع وصاحبة التفكير وواضعة التشريع بل هى أصل المدنية فى الوجود

ظن نفر من الشرقيين ليس بقليل بالامم الاوروبية هذا الظن ولذلك تراه يخطئ قومه اذلم يعملوا لسعادتهم بتقليد الامم الغربية فتراهم يقومون مقلدين وهنالك يخلطون عملا صالحا بآخر سيئا قلدوا الأمم الغربية لظنهم انها قاموس المدنية ومصدر الاختراع ونسوا كتاب الله وهو بين أيديهم

وتعاليم رسول الله وهم مسلمون

ولقد صرح كثير من الغربيين بمعجزات ذلك التشريع وانه هو الأصل الفرد الذى جاء بالمدنية بكل معانيها وأن أوروبا ما كانت فى مدنيتها الا آخذة عن ذلك المعلم الحكيم «صاحب الشريعة الاسلامية» واليك ما كتبه بعضهم فى هـذا الباب حتى تعرف قدر ما للعرب بعـد الاسلام فى العلم وما لهم من المكانة العالية فى الصنائع والفنون قال الاستاذ (درابر) الامريكى فى كتابه الذى سماه التنازع بين العلم والدين (بعد ان انتقل صاحب الشريعة الاسلامية الى الدار الباقية ترجمت الى اللغة العربية أهم المؤلفات اليونانية وترجمت القصائد اليونانية الشهيرة (كالالياذة) و (الادبية) الى اللغة السريانية ليطلع عليها العلماء دون العامة لما زادوا فيها من الأقاصيص الخرافية عن ألسنة اليونانيين مما يخشى منه على عقائدهم ولما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور (من سنة) ٧٥٣ الى ٧٧٥ نقل مقر الملك الى بغداد وجعلها عاصمته فلم يأل جهداً من بذل الوسع فى درس العلوم الفلكية وتأسيس مدارس الطب والشريعة

وسنأتى بشيء ليس بقليل مما كتبه هذا الأستاذ فى المحاضرة الآتية عن الامة الاسلامية مع كونه غريبا عن الاسلام حتي يعلم المسلمون مدنية آباءهم بشهادة الغرباء عنهم فينعزلون عن التقليد الاوروبى ويتمسكون بأصول دينهم الحنيف

المحاضرة الثانية

﴿ من الباب الأول ﴾

(فى أن دين الله في الناس الفطرة وأن الشورى لاتكون الا فيما لم يرد فيه)
نص قطعي أوظني

« فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة »
« الله التى فطر الناس عليها »
« قرآن شريف »

لو كان دين الله فى الناس على غير فطرتهم لكان للعبد شبه عذرٍ فى عدم امتثال شريعة الله فيه لما في ذلك من الحرج الحاصل بالخروج عن نواميس تكوينه في سبيل الامتثال لداعى الله ولنا في ذلك الحكمة الالهية بفوات المصلحة العمرانية بالتكاليف البعيدة عن مصلحة الانسان

لذلك كانت شرائع الله فى عباده من لدن آدم عليه السلام الى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم على وفق ماتقتضيه طبيعة الانسان (فطرة الله التى فطر الناس عليها) . ولما كان الانسان بفطرته نزاعاً الى الشر لم يدعه فريسة نفسه كما فصلنا ذلك فى المحاضرتين الخامسة والسادسة بل جعل لتهذيب ذلك النازع النفسى وازعاً إلهياً يعلم الناس من آيات الله الكونية مافيه الضمانة لسعادتهم في الحياتين ومالم يرد فيه نص قطعيٌّ أوظنيٌّ على لسان ذلك الوازع فللمسلمين حق أن يتشاوروا فيه وما يقرّ قرار الجماعة عليه فلا يعتبر من الدين الا اذا اعتمد فى اثباته على نص من كتاب أوسنة أوقياس

ولقد أجمع المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلافة أبي بكر رضى الله عنه قياساً على إمامته فى الصلاة فقالوا رضيه رسول الله لأمر ديننا أفلا نرضاه لأمر دنيانا

أما ماوردت فيه النصوص سواء من طريق السنة أو الكتاب فلا مجال للرأى فيه لانه مشروع برأى الحكيم الاعلى على وفق ماتقتضيه المصلحة وتدعوا اليه الضرورة .

ولقد عني صاحب الشريعة بهذا السر ونسج الصحابة (رضوان الله عليهم) على نحوما قرر لهم . ويروون أن أبا بكر رضى الله عنه لما حضره الموت استخلف بعده ابن الخطاب فدخل عليه المهاجرون والانصار قائلين (نراك قد استخلفت علينا عمر وقد عرفته وعلمت بوائقه فينا وأنت بين أظهرنا فكيف اذا وليت عنا وأنت لاق الله عز وجل وسائلك فما أنت قائل) فأجابهم رضى الله عنه (لئن سألني الله لأقولن قد استخلفت عليهم خيرهم في نفسه) ثم أمر ان تجتمع عنده الناس فقال فيهم (أيها الناس قد حضرني من قضاء الله ماترون وانه لابد لكم من رجل يلي أمركم ويصلى بكم ويقاتل عدوكم فيأمركم فان شئتم اجتمعتم فأتمرتم ثم وليتم عليكم من أردتم وان شئتم اجتهدت لكم رأيي وو الله الذى لااله الا هو لآلو كم فى نفسى خيرا »

فقالوا ياخليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا فاختار لهم ابن الخطاب رضى الله عنه بعد ان فوّض لهم الأمر وردوه اليه بالوكالة عنهم ولم يكن ليستبد برأيه فى تولية من يوليه عليهم

ولقد روى أيضاً أن عمر رضى الله عنه لم يستبد فى استخلاف من بعده بل ترك الامر شورى لجماعة من أجلاء الصحابة (عليّ بن أبي طالب)

(وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف) وقال فيهم « يامعشر المهاجرين الأولين اني نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقا ولا نفاقا فان يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم تشاوروا ثلاثة أيام فان جاءكم طلحة فهو معكم والا فاعزم عليكم بالله أن لاتتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم الى أن قال فان استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه وان استقام أربعة وخالف اثنان فاضربوا أعناقهما وان استقام ثلاثة وخالف ثلاثة فاحتكموا الى ابني عبد الله فلأي الثلاثة قضى فالخليفة منهم وفيهم ولما انتقل عمر رضى الله عنه الى الدار الأخرى اجتمع الموكلون بالشورى وقد أحضروا عبدالله بن عباس والحسن بن علي وعبد الله بن عمر ولما لم يظهر لهم أمر في اليوم الثالث قال لهم ابن عوف رضى الله عنه هذا يوم عزم عليكم صاحبكم أن لاتتفرقوا فيه حتى تستخلفوا أحدكم »

وقد اقترح عليهم ان يدعوا الامر اليه على أن يدع هو نصيبه من الخلافة لهم فكان ما أراد وقالوا له « أعطيناك الذى سألت » « فقال لهم اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم » فجعل الزبير أمره الي عثمان وجعل سعد أمره الى عبدالرحمن » ثم قال لهم عبد الرحمن بن عوف كونوا مكانكم حتى آتيكم فخرج متخفيا فلم يدع أحداً من عظماء الصحابة الا استشاره كما انه لم يترك فرداً من صغار الناس الا قال له « من ترى الخليفة بعد عمر » فكان الكل لا يسند الخلافة الا لعثمان رضى الله عنه ولما أجمع الناس أمرهم عليه قلدوه اياها »

هذا مبدء من مبادئ الشريعة الاسلامية وأصل من أصولها مبدء

هو ملاك سعادة الامم وعدم مراعاته من عوامل شقاءها

ان الفرد يخطئ ويصيب ويضل ويهتدى ويرضى ويغضب أفاعيل تتنازعه ربما نجم عنها من الرأى مالا يتفق مع المصلحة ومالا يقوم معه النظام في بقاء العمران

ان الانسان بين عالم من عوامل البشرية يستحيل معها ان يضع كل أساس بمكانه وليس هو بذلك جائرا متعمديا ولكنه مقهور لأفاعيل النفس وعواملها فلا يخلو من المسئولية أمام الله تعالى في تفريطه بترك النفس تذهب مذاهبها وتعبث بمصالح العباد

لذلك عظم الاسلام أمر الشورى فقال « وأمرهم شورى بينهم » « وشاورهم فى الأمر »

وما قامت أوروبا التى تفخر بمدنيتها على الأمم الا بما أخذته عن صاحب الشريعة الاسلامية من تعظيم أمر الشورى وانها مرجع التقدم فى عالم الوجود

لسنا ممن يذهب مذاهب العاشقين للجمود ويتغالون فيه الى حد العدوان على الدين واتهامه بتهمة الوقوف الى حد محدود من النظر ولكنا ممن درس الشريعة الاسلامية بقدر الوقوف على أخلاق الشارع نظرنا نظرة فى كتاب الله فاذا هو قد حل المأسورين مما قيدوا به من السلاسل والاغلال وكر على المقلدين فسفه أحلامهم وقادهم الى المحاكمة امام العقل وأطلق عنان النظار يجولون جولتهم فى عالم الله

نشر كل هذا في أندية العرب نخلق فيهم روحا عملية وحركة فكرية فلم يكونوا ليقفوا بعد ذلك عند حد في جميع العلوم والصنائع

الكونية ولنرجع الى ما اختزلناه من كتاب الأستاذ الامريكي مما يشهد للامة الاسلامية بالمدنية الصحيحة بما كان للآباء الاولين من العلم والفلسفة والمهارة في الصناعة وان شمس المدنية قد سطعت من سماء العرب على أمم العالم بذلك التشريع المحمدى والسر القرآنى قال ولما جلس حفيده على عرش الملك « سنة ٧٨٦ » اتبع أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية وأمر باضافة مدرسة الى كل مسجد فى جميع ارجاء ملكه ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الاسيوية لم يشرق الا فى خلافة المأمون الى أن قال

ذاق العرب من الفنون الأدبية كل ما من شأنه يحد القريحة ويصقل الذهن وقد افتخروا فيما بعد بانهم أنجبوا من الشعر بقدر ما أنجبت الامم كلها مجتمعة الى أن قال وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية وأدوات ومعدات لعلم المنطق . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايدروستاستيك ونظريات الضوء والابصار بانهم قد اهتدوا الى حلّ مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات هذا هو الذى قاد العرب لأن يكونوا الواضعين لعلم الكيمياء والمكتشفين لجملة ألات للتقطير والتصعيد والاسالة والتصفية وهذا بعينه هو الذى جعلهم يستعملون في ابحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرلابات وهو الذى بعثهم أيضاً لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية الى أن قال

وقد قيل ان المأمون نقل الى بغداد مائة حمل بعير من الكتب وقد كان أحد شروط معاهدة الصلح بينه وبين الامبراطور ميشيل الثالث ان يعطيه احدى مكاتب القسطنطينية التى كان فيها بين الذخائر العلمية الاخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية فأمر المأمون بترجمته

للعربية الى أن قال

(ومما يحكي ان أحد الدكاترة العرب رفض دعوة سلطان بخاري له محتجا بان كتبه لا يمكن نقلها الا على أربعمائة بعير الى أن قال (فقد كتبوا فى كل فن وفى كل علم كالتاريخ والشريعه والسياسة والفلسفة وتراجم الرجال وتراجم الخيول والابل . وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات كثيرة جداً في الجغرافيا والاحصائيات والطب والتاريخ وقواميس اللغة . ولقد فاه الخليفة الكبير المأمون بفكره على حقيقة العلماء فقال ان صفوة خلق الله وأفضل عباده وأنفعهم هم الذون يقفون حياتهم على تربية مواهبهم الطبيعية وان الذين يعلمون العلم والحكمة للناس هم مصابيح العالم ولولاهم لارتكس الخلق فى عماية الجهالة وغياهب البربرية) وبعد ان تكلم على المدارس قال (وأول مدرسة أنشئت من هذا القبيل فى أوروبا هى المدرسة التى أسسها العرب فى (سالرن) فى ايطاليا وأول مرصد أقيم فيها هو ماأقامه المسلمون فى اشبيلية باسبانيا الى أن قال (العلماء الفلكيون من العرب اهتموا أيضاً بتحسين آلات الارصاد وتهذيبها وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الاشكال والساعات المائة والسطوح المدرجة الشمسية وهم أول من استعمل البندول لهذا الغرض ويسمونه) بالرقاص اما فى عالم العلوم التجربية فقد اكتشفوا الكيمياء وبعضا من محلالتها الشهيرة مثل حمض الكبريتيك وحمض النيتريك واستخدم العرب علم الكيميا فى الطب لانهم أول من نشر علم تحضير الملاجات والافريادينات واستخراج الجواهر المعدنية اما فى علم الميكانيكا فانهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام وعرفوا ناموس الجذب فى الاجسام وكانوا عارفين بعلم الحركة

اما فى الايدوستاتيك وهو علم موازنة السوائل وتقدير الضغط الواقع منها على أوانيها فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة لأنواع الأوزان النوعية وكتبوا ابحاثاً على الاجسام السابحة والفائصة تحت الماء اما فى نظريات الضوء والابصار فقد غيروا الغرض اليونانى الذى مقتضاه ان الابصار يحصل بوصول شعاع من البصر الى الجسم المرئى وقالوا بعكس ذلك أى ان الابصار يحصل بوصول الشعاع من المرئى الى العين وكانوا يعرفون نظريات انعكاسات الاشعة وانكساراتها وقد اكتشف الحسن الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى الأفق وكذلك فى الغروب نراهما قليلا بعد ان يغيبا

ان نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد وتربية الحيوانات وسن النظامات الزراعية وادخال زراعة الارز والسكر والبن . وقد انتشرت المعامل والصنائع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن وكانوا يذيبون المعادن وكانوا يجرون فى عملها على ماحسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها

فانظر كيف كانت قيمة الحركة العلمية والصناعية عند العرب فى صدر الاسلام ومن الذى انتقل بهم من ذلك الجهل العميق الى سماء العلم والعرفان

انا لو نظرنا نظرة حكيم وعدلنا بعد ذلك فى الحكم لعلمنا بداهة ان أوربا ما كان لها ان تنتقل الى دورها الجديد فى حركة العلم والاختراع الا بما أخذته عن الاسلام وتعاليمه الحكمية بشهادة حكماء الغربيين أنفسهم

وان المسلمين ماحط بهم الى هذا الموضع الوضيع الا انهم نبـذوا دينهم وراءهم ظهرياً وما كان لهم الا ليتدينوا بالدخيـل على الدين من الخرافات التي وقفت بعقولهم عن السير مع تيار الحركة العامية الدينية

بلغ من شأن هذا الهذيان ان استولى على طائف عظيم من المسلمين خصوصاً فى البلاد الشرقية حتى ترى الشيوخ وخطباء المساجـد وبعض الزهاد فى العمل باسم الدين يحاربون الحركة العلمية والعملية وكان من شأن هؤلاء أن يبغضوا أفراد الأمة فى العمل للحياة الدنيا من التجارة والزراعة والصناعة فأصبح المسلمون بفضل تعاليم أولئك الأغبياء أعداء الدين في هذا التقهقر العلمي والعملي . وقدنسوا قول صاحب الشريعة (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)

المحاضرة الثالثة

﴿ من الباب الأول ﴾

(في أن تعليم الرماية واجب وأن الجندية أصل من أصول الاسلام)

لم يكن ليجهل أحـد ممن استقرأ أخلاق صاحب الشريعـة الاسلامية قيمة تسامح الاسلام ومهما يكن من تسامحه فهو شديد التمسك باحترام العقود والعهود

من أجل ذلك تراه لايقيم للنا كثين للعهود وزنا (ومن نـكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما)

لم يقف بهذا الصنف عند حد عـدم الاحترام ولـكنك تراه يحض

على قتالهم لعدم الثقة بمكانتهم الانسانيه من القيام بواجب الوفاء (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين)

الجندية أصل من أصول الاسلام ولكن المسلمين قد أصبحوا غرباء عن الدين باسم الدين ولم يشأوا بهذا التقهقر الديني الا أن يكونوا وثنيين في العقيدة لاموحدين غربيين في النزعة لا شرقيين . واذا دعتهم الحكومة الى دين الله كتقليدهم الوظائف العسكرية رأيتهم يقيمون المآتم لهذا الرزء ويفتحون بيوتهم للتعزية ويصيحون ويبكون هذا شأن الطبقة الثالثة أما الطبقة الثانية والأولى فهؤلاء يشترون أنفسهم بما ملكت أيمانهم من الأموال ثم يرفعون أعلام الفوز بما مكنهم الله على مصادرة ذلك الوباء المشروع في دينهم يظنون انهم مع ذلك اسلاميون في العقيدة عثمانيون في النزعة والله فوق مايظنون

تبرء المسلمون على اختلاف أطوارهم علما وجهالة من وظائف العسكرية المشروعة في الاسلام حتى أصبحت الجندية من أحقر الاعمال تناولا

ولما بغضت العسكرية في هذه الأمة الجاهلة بدينها أصبح يتعفف عنها زعماء الفضيلة وانصار المدنية الكاذبة ولا يتقلدها قهراً الا رعاة البقر بعد ان يفر منها فرار الصحيح من الأجرب حتى نزل بها هذا الصنف الذي لايباين البهائم الا في الشكل والصورة بما جعلها من الحرف الدنيئة التي يتعفف من تناولها ذوا النفوس الابية

فرحماك أيتها الامة ألبست على نفسك الحق بالباطل وحاربت الاسلام باسم الاسلام فأصبحتم بفضل هذه الجهالة كفاراً تحت حجاب الدين

فقتلتم مدنية أباءكم واستخلفتم العز بالذل والعلم بالجهل والشهامة بالجبن والغنى بالفقر والحكمة بالتخريف والعمل بالتقاعد والعقائد بالعادات . كل ذلك بما كسبت أيديكم من عداء الدين باسم الدين فكانت نتيجة أمركم الهوان والصغار أمام كل أمة حية

الجندى أساس المملكة وقوام سلطانها أو هو مركز ودائع الأمة ومحل خزائنها الملأى بنفائسها الحيوية فهو محل أماناتها ومرجع تصرفها ومكون جيشها ومبارز أعداءها اذا شبت نيران الحرب يذب عن حوزة حرمتها فهو أساس الدولة ومركز سعادة الأمة

هذه وظيفة الجندى يراها الناظر أكبر مركز عمرانىّ فى الوجود لذلك عظم الاسلام الجندية . انظر كيف كان القسم بالخيل لانها ركاب الجندى ووحدة نجدته اذا صال عليه أعداء الانسانية أنصار الشيطان قال تعالى (والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً إن الانسان لربه لكنود) هذا أكبر برهان على وجوب تعلم ركوب الخيل وفيه إشارة الى مشروعية الجندية فى الاسلام بعد التصريح بالأمر بالقتال ومبارزة الناكثين للعهود العاملين على مبادئ الوحشية فى بنى آدم)

ولقد كتب الامام الحكيم أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده فى هذا الباب ما نصه . قال (وبالجملة فان ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم الا من عصم الله وهم قليلون . ولهذا تراهم يفرون من الخدمة العسكرية ويطلبون للتخلص منها أية حيلة وهى من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم وترى غيرهم من الأمم يتسابقون الى

الانتظام في سلك جنديتهم مع انها غير معروفة في دينهم بل مضادة لصريح نصوصه وترى المسلمين يبخلون بأموالهم اذا دعت الأحوال الى مساعدة الدولة والانفاق على مصالح الأمة ولا يبخلون بذلك على شهواتهم بعكس ماترى في سائر الأمم

هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل فلايعرفون لهم رابطة يرتبطون بها ولا يهتدون الى جامعة يلجأون اليها وتقطع مابينهم

(تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون)

(هذه كلمة الامام الحكيم فقيد الشرق)

ولو علم المسلمون لأخذوا من مدنية دينهم ماينتقل بهم من هذا العدم الى الحياة الصحيحة التي هي الضالة المنشودة في كل أمة والله يعلم ان التقدم والسعادة نصيب كل من يجاهد في سبيل الخير وحظ كل من يتفانى في نصرة الدين والملة وما كان الله ليبخس أحداً نصيب عمله

قلنا ان الاسلام كثير التسامح شديد الحرص على الوفاء بالعهود

انظر كيف يقول (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم)

هكذا ترى الاسلام بقدر تسامحه عظيم التمسك باحترام العهد يشدد النكير ويكثر الوعيد على الأمم الباغية العدوانية النازعة الى انتهاك الحرمات بعوامل الجهالة وجنود الحماقة أولئك جند الشيطان لاتأخذكم بهم رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وللامام عليّ رضي الله عنه في هذا الباب مانصه :

(أين القوم الذين دعوا الى الاسلام فقبلوه وقرأوا القرآن فأحكموه وهجموا الى القتال فولهوا وله اللقاح الى أولادها وسلبوا السيوف اغمادها وأخذوا باطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً بعض هلك وبعض نجا لايبشرون بالاحياء ولا يعزون بالموتى مره العيون من البكا خمص البطون من الصيام ذبل الشفاه من الدعاء صفر الألوان من السهر على وجوههم غبرة الخاشعين أولئك اخوانى الذاهبون فحق لنا ان نظمأ اليهم ونعض الايدى على فراقهم ان الشيطان يسن لكم طرقه ويريد ان يحل دينكم عقدة عقدة ويعطيكم بالجماعة الفرقة واصدفوا من نزغاته ونفثاته واقبلوا النصيحة ممن أهداها اليكم واعقلوها على أنفسكم)

(هذه كلمة من حكمه رضى الله عنه فهلاّ أجاب العثمانيون ذلك الندا أمام هذه الحروب وهلاّ خفقت قلوبنا أولان منا ذلك الجمود الكمين) (يقول ابن أبي طالب أولئك اخوانى الذاهبون فحق لنا ان نظمأ اليهم ونعض الأيدى على فراقهم) وما الأمم الجاهلة الا أغنام تسوقها يد الاستبداد والعدوان

قلنا من قبل لقد فاض الاسلام بمدنيته على أمم أوروبا حتى أصبحت تفتن بعالم الاختراع وآيات الابتكار وتقارعنا بما أخذته عن المعلم الاسلامى صاحب الشريعة الاسلامية راجع ما كتبناه قبل واستعرناه من شهادة فلاسفة الغربيين بما أخذته أوروبا عن العرب من العلوم الرياضية والطبيعية والهيئة والطب والاختراع وغير ذلك قال (مونتكلا) المؤرخ الكبير (ولم يقم من الافرنج عالم بالرياضيات الا كان علمه عن العرب مدة قرون عديدة) وتلك هى الدولة الطليانية ترى كثيراً من علمائها قدأخذوا عن الاسلام

حظاً وافراً من العلم ذلك هو (ديكريمونيا) الايطالى تلقى عن الاسلام دروس الهيئة والطب والفلسفة وترجم كتب الشيخ الرئيس والرازى الى اللاتينية وذلك هو ليوندار البنرى أخذ عنه العلوم الرياضية وهذا ارنولد الفيلانوفى تلقى عن الاسلام الطب والهيئة والطبيعيات

هذه قطرة من بحار المدنية الاسلامية التى فاضت بها على أمم أوروبا فبربك قل لى ماذا أخذ الشرقيون عن الغربيين وما قيمة ماقابلت به أوروبا الاسلام مع وفاءه وكثير تسامحه

ادع الجواب اليك لتصدر حكمك ولست شارحا حالتنا الحاضرة ومبلغ التقهقر المادى والاخلاقى الذى قد سقط فى هوته الشرقيون بما أوفدته لهم أوروبا من النساء والقمار والخمور . وتلك هى محكمة التفتيش القديمة التى أنشأها الاسبانيون لمحاكمة المسلمين وذلك هو التاريخ يشهد بما سمت اليه اسبانيا من اطفاء نور العلم الاسلامى بما أحرقته من الكتب العربية الاسلامية التى لاتقل عن ألف ألف وخمسة آلاف مجلد من الكتب المخطوطة بالاقلام العربية وقد سلبوا فوق ذلك ديار سلطان مراكش بعد ان ألقوا بكتبها الى قصر الاسكوريال سنة ١٦٧١ ميلادية راجع كتاب (ربلس) المؤرخ الاسبانى الكبير ومهما يكن من مدنية أوروبا التى قد أهدتها الى الاسلام أو الشرقيين أجمع فلن نستطيع ان نوافيها من نوع هديتها لأن صاحب الشريعة الاسلامية ما كان الاليقرر الاخلاق بين أفراد بنى آدم قال المعصوم (بعثت لاتمم مكارم الاخلاق) فيا أيها المسلمون ادعوكم باسم دينكم الذى أنتم تنتسبون اليه ان تجعلوا قائدكم كتاب الله الذى بين أيديكم (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم)

المحاضرة الرابعة

﴿ من الباب الأول ﴾

(في تنظيم صفوف المجاهدين والإشارة الى قول الله)

« ان الله يحب الذين يقاتلون فى »
« سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »
« قرآن شريف »

ترى الانسان فى كثير من أطواره اليوم على نحو ما كنت تراه منذ قرون وأجيال والتنافس فى الخصال الحميدة خلق لنفر قليل من بنى آدم أولئك الذين كبرت نفوسهم فعلت بهم الى مقاعد العزة والسلطان على الوجه الذى رسمه الشارع لا كما تنزع النفوس المطبوعة على حب العدوان وهذا النوع من التصارع العدوانى لا يكون الا فى الأمم الباغية الوحشية التى لم ترع فى الشرف إلا ولا ذمة أما الغيرة لدين الله والذب عن حوزة الحرمات والتفانى بالنفس فى دفع عادية المعتدين المغتصبين فذلك هو الجهاد فى سبيل الله والمجاهدون شهداء أعزاء (فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً)

وكما أن الحرب أصناف متباينة حرب لله . حرب للنفس . فكذلك كان الناس فى حقيقتها على مذهبين أحدهما أن يرتب الجيش صفًّا صفًّا حتى يكون طوداً لا تهزه صواعق الأساطيل ولا تذروه عواصف القنابل يمثل البسالة والشجاعة بأقدامه بقدميه على الأعداء الخائنين لا يبالى بما يرميه من

السهام والنبل وذلك أدعى للروع والقاء الرعب فى أفئدة المقاتلين فالحرب اذا كان على هذه الصفة في الزحف صفا صفاً كان القوم بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً فلا ريب يكسب الجيش قوة على قوة وكلما كان الثبات عظيماً كلما كان النصر أعظم وليس ثمة أضر على النظام من الإحجام والادبار فهو نذير الفشل وبشير السلام للعدو

ذلك لان حب السلامة النفسية يخلق فيها روح الانكماش والانزواء لاستبقاء تعميرها فى الحياة أجلا طويلا وما هو بعمر فيها ولكن الفناء والموت فى الذى فعل

وفي التقهقر لحياة نفس واحدة نذير المنية لنفوس كثيرة وما أحسن ماقاله ابن أبي طالب فى هذا الباب يوم صفين مخاطبا قومه بما نصه (سووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الاضراس فانه أنبأ للسيوف عن الهام والتووا على أطراف الرماح فانه أصون للأسنة وغضوا الأبصار فانه أربط للجأش وأسكن للقلوب وأخفتوا الأصوات فانه أطرد للفشل وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها الا بأيدى شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر) « هذه كلمة الامام وأنت خبير بكثير حكمه وانه لمن أبصر الناس بعلم الحرب وليس هناك أدل على انه الحكيم الفرد فى هذا الفصل من نجاحه فى الحروب الكثيرة وقد كان النصر شعاراً لقومه فى غالب المعارك فى سبيل الفتوحات الاسلامية »

وللصيرفى شاعر الأندلس فى سياسة الحروب مانصه

أهديك من أدب السياسة مابه   كانت ملوك الفرس قبلك تولع

ألا إنني أدرى بها لكنها — ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
والبس من الخلق المضاعفة التي — وصى بها صنع الصنائع تبع
والواد لاتعبره وانزل عنده — بين العدو وبين جيشك يقطع
واجعل مناجزة الجيوش عشية — ووراءك الصدق الذى هو أمنع
واذا تضايقت الجيوش بمعرك — ضنك فاطراف الرماح توسع
واصدمه أول وهلة لاتكترث — شيئا فاظهار النكول يضعضع
واجعل من الطلاع أهل شهامة — للصدق فيهم شهامة لاتخدع
لاتسمع الكذاب جاءك مرجفاً — لارأى للكذاب فيما يصنع

وللعرب فى مقاومة الأعداء مذاهب حتى أنهم كانوا أقدر الناس سياسة فى الحروب ولم يظهر الى اليوم نبوغ يماثل النبوغ العربى دفعهم الى التفنن فيه روح الهية صاص نورها على قلوبهم بعد أن جاء لهم الوازع الاسلامى يصدع بآيات الحياة الأخرى ويضع لهم سنن المقومات العمرانية ويستنهض الأفكار للنظر فى تكوينهم الناطق بوجوده هو واجب الوجود وهو مصدر فرد فى حياتهم الأولى والمرجع فى القضاء فى الحياة الثانية (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره)

وبهذا السر الالهى كانوا يطاردون الأعداء ولا يقيمون لحياتهم الدنيوية فى هذا السبيل وزناً لأنهم يعتقدون أن الموت باسم الله فى سبيل الله حياة وأن الحياة للحياة الكاذبة القصيرة هو الموت بأوسع معناه

وما قيمة العيش اذا كانت الحياة مجموعة الذل والصغار تقام فيها معابد لاوثان وتنهار صروح التوحيد وهى قائمة فى النفوس بما سطع فى القلوب من آيات بارئ الكون ومحيي الأجنة فى بطون أمهاتها ولقد شهدت

النواميس الطبيعية بأن النفوس الأبيـة لا تقبل الضيم والهوان فى كل أطوارها الحيوية وما شذ عن هذا من النفوس فقد خرج عن حيز الطبيعة الانسانية وان أعطى صورتها الوهمية

قلنا من قبل إن الجندية فى هذا الدين واجبة ولم يكن الاسلام ليعظم من أمرها الا بقدر نسبة مكانتها فى الجمعية الانسانية ولو أدرك المتسلطون على الهيئة الضابطة قيمة مسئوليتهم أمام الله تعالى لما أمسكوا عن خدمة الحياة القومية مهما كلفهم ذلك من المؤنة لان وظائفهم لها نوع ارتباط بالمجموع لم يكن لسواهم حتى فى كثير من الأحوال الشخصية .

ولقد رأيت مصباح هذه الروح مضيئا فى شخص رجل واحد ذلك هو صاحب السعادة (القائمقام) صديقى « محمود صدقي بك حكمدار بوليس البحيره » الذى قد أشرت عن شئ من نظره العالى بالمحاضرة الأولى فى صدد الكلام على تشخيص الدواء لأمراضنا الاخلاقية

زرت هـذا الرجل المفضال (بمريوط) يومئذ كان مأموراً لمركزها ولما استفسرت عن أخـلاق العرب بوجه عام وكيف وصل الى أن تسود الطمأنينة والسكينة بينهم مع ما بهم من جفاف الطبع والجموح الى العدوان علمت أن سعادته لم يكن ليقف عنـد حد مصادرة الأشقياء منهم فى أمر دنياهم فقط (لا) بل أخذ يستقرئ أخلاقهم من جهة دينهم حتى اكتشف عادة بينهم فى باب الزوجية لم تكن لتشرع فى أية شريعة من شرائع الله فى العالم أجمع فساءه أن يدعهم فريسة جهلهم فاقترح على القاضى الشرعي باعتبار أنه رئيس السلطة الدينيـة أن يكتب اليه باستهجان تلك العادة وأنها لا تتفق مع روح الدين فى شئ فكتب اليه ثم استصدر أمراً

عالياً بناء عن طلب القاضى لمصادرة ذلك الوباء المنتشر بين العرب باسم الدين ولم يكن ليقهرهم على الاقلاع عن تلك العادة بمحض السلطة الادارية بل أخـذ يسوسهم من حيث يمكن سياستهم حتى أصبحوا بمسعاه من خير الناس أخلاقاً فى أمور دينهم ودنياهم وهكذا ترى أمانى هذا المفضال ترجع حول غرض واحد هو أن يكون لدولة الارواح بين الناس سلطة فوق عوامل النفس البهيمية ... إنه وأيمن الله لو قدر المتسلطون على الهيئة النظاميـة العسكرية قيمة مسئوليتهم في القيام بمهمتهم الاجتماعية تقـدير صدقي بك لها لاستراح الحاكم والمحكوم معاً ولأخذ البوليس فى بلادنا من المكانة النظامية مالم تأخذه آية هيئة نظامية عسكرية فى الأمم الاخرى

إن النفس إذا كبرت استخدمت قواها فى سبيل خدمة الجماعة واليد العاملة خـير من اليـد الخاملة والعكس بالعكس اذا صغرت النفس فان وازع الاقدام فيها يموت عنـد حد مصلحتها ومصباح الفضيلة ينطفئ عند حد التفانى فى حبها وعندى أن صفوة عباد الله فى الكون (أولئك الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وما احترام النفس الا في احتقار أميالها وأغراضها وبقـدر مايحترم الانسان نفسه بقدر ما يحـترمه الناس ولكل وجهة هو موليها

ومهما يكن فيجب على الانسان أن يعظم من نفسه بقدر ماعظمه الشارع منـه وأن يسلك فى معارك الحياة على نحو تعاليم الوازع الحكيم واذا هو سلك هـذا السبيل فليس ذلك مما يتولد عنه العدوان على حياته والا فأين الثقة بقوله (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) فالسلطان الأكبر للرقيب عليك في أعمالك ومن لم يجعل الله له نصيراً فليس له نصير

(ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) ومن كانت قبلته وجه الله فالله موليه (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

الباب الثاني

(فى الكلام على المرأة وفيه ثلاث محاضرات)

المحاضرة الاولى

﴿ في قيمة المرأة فى الاسلام وما لها من التأثير فى الحياة القومية ﴾

قام الكون وتأسس بناء العمران فى الوجود على عاملين اثنين (ثانيهما المرأة) وما كان أحدهما ليقل عن الآخر فى الاهتمام به شيئا فى سبيل تكوين هذه الجامعة الانسانية وانتظام عقد اجتماعها فى صفوف الأمم الحية الراقية .. علمتنا الشرائع ما برهنت على صدقه حوادث الأيام فى الامم والشعوب وأصبحت قيمة المرأة معلومة حتى عند الأمم البعيدة عن القوانين السماوية العتيقة فى الوثنية قادهم الى الاعتناء بشأنها قوة تأثيرها فى الحياة القومية

أغمز القلم لأكتب فصلا في هذا الباب وما كان إلا ليقطر دماً على ما وصلت اليه أطوار المرأة الشرقية أو بعبارة أخرى اطوار المرأة المسلمة فى كل بلاد الاسلام

يندب الناس حال مصر وأنا أندب حال المرأة فى بلادنا والعزلة عن الدين باسم الدين أندب حالها فى تدبير منزلها فى دينها ودنياها

منظر مخجل وتقهقر قاتل ووجدان جامد وسعي الى الشقاء وعدو الى الفناء وأيّ غائلة تأخـذ بالعمران الى هوة الخراب أكبر من إهمال المصدر الثاني فى تـكوين هذا المجتمع الانسانى فى الوجود

عظم الاسلام قيمة المرأة وجعل لها من الحق على الرجل ماعليها من الحق له وحسبك في ذلك قوله (ولهن مثـل الذي عليهن بالمعروف) وقد كانت فى الجاهلية مستعبدة يرثها الأبناء عن الآباء ومن ذلك ماروى انه لما مات أبو قيس بن الاسلت قام ابنه حصن فورث نـكاح امرأته ولم يورثها من المال شيئا فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت خبرها له فقال لها ارجعى لعل الله ينزل فيك شيئا فنزل قوله (يا أيها الذين آمنوا لايحل لـكم ان ترثوا النساء كرها) رفع الاسلام قيمة المرأة وجعل لها المـكان المـكين فى الحرية تتصرف في حاجاتها كما تشاء لمن تشاء من هبة ووقف وبيع ورهن وإجارة وقد كان منهن فى الصدر الأول المتعلمات الفاضلات لهن من الدراية فى الخطاب والبراعة فى الـكتاب مايدل على اعتناء الاسلام بشأنهن ويروون أنه لما خرجت عائشة رضى الله عنها مع طلحة والزبير الى البصرة للمطالبة بدم عثمان صادرها جماعة من الناس حين دخولها وقالوا لها ماالذى أخرجك من بيتك يا أم المؤمنين فأجابتهم بخطاب بليغ بعد أن حمدت الله وأثنت عليه قالت (أيها الناس والله مابلغ من ذنب عثمان أن يستـحل دمه ولقد قتل مظلوما)

غضبنا لـكم من السوط والعصا أفلا نغضب لعثمان من القتل وإن من الرأى أن تنظروا الى قتلة عثمان فيقتلوا به ثم يرد هذا الأمر شورى على ماجعله عمر بن الخطاب ولقد كـتبت لها أم سلمة تعترض على خروجها من

بيتها قالت مانصه ضمن كتابها (أما بعد فانك سدة بين رسول الله وبين أمته وحجابك مضروب على حرمته فقد جمع القرآن الكريم ذيلك فلا تبذليه وسكن عقيرتك فلا تضيعيه) تعني قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) الى أن قالت (وقد علمت أن عامود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ولا يرأب بهن إن انصدع خمرات النساء غض الأبصار وضم الذيول الى أن قالت ولو أتيت الذى تريدين ثم قيل لى ادخلي الجنة لاستحييت ان ألقى الله هاتكة حجاباً عليّ فاجعلي حجابك الذى ضرب عليك حصنك فابغيه منزلا لك حتى تلقيه) ظلت المرأة راقية فى الصدر الأول من الاسلام وتناوبتها الفضيلة كلما انتقلت الدولة من طور الى طور حتى الى الدولة العباسية وبعد انقضائها انطفأ ذلك المصباح وانصدع عرش مكانه وأخذت المرأة تتدرج في مهاوى السقوط وابتدأ المسلمون يسترقونها ويسترجعون لها ثيابها التى كانت لابسة لها فى الجاهلية بما سرى اليهم من دولة الفرس ودولة الأغوات حتى أصبحت ساقطة لاقيمة لها تسبح في غياهب الجهل وتعتصم بحبال الخرافات فى المعتقدات وليس لها من الهم في هذه الحياة الا ان تهيم بما تأكل أوتناله من الزخرف فى اللباس

هذه نبذة من سخائم المرأة الشرقية وذلك نصيبها من العلم وما كانت لتحيط بها هذه الخطوب الا لنسيانها أوتناسيها فى زاوية الهذيان والخمول

أجل أخذ الناس فى هذه السنين الأخيرة يتوافدون أفواجاً على أبواب أدوار العلم لتخريج أبناءهم من المدارس العليا فيخرج الطالب بعد أن يقضى سنى دراسته ونظره معقود بأحد أمرين إما الميل الى البطالة والسير

تحت لواء الرذيلة وإما السعي وراء أن ينال وظيفة من وظائف الحكومة ·
(لم هذا ياترى) رق بعد حرية جهل بعد علم عدم بعدوجود ذلك لانه قد آوى فى مدة حضانته الى قلب لم تعرف الفضيلة إليه سبيلا والى مدارك مفعمة بضروب الهوس والهذيان

لعبت المرأة دوراً عظيماً في تقدم الأمم الغربية وادراجها فى مدارج الفلاح ومعارج النجاح ولقد علم أساطين العالم مالها من التأثير في الحياة القومية فعملوا على الاعتناء بشأنها وحسن تربيتها وكمال تعليمها لانها الشريك الثاني والعامل الكبير الذى قام عليه المجتمع فى الوجود

المرأة المتعلمة قادرة على أن تثير الافكار كما تثيرها قادرة على أن تهز أرائك الملوك كما تهز عروشها تجمع لها القلوب المتنائية برقتها وجمع القلوب خير من الاستيلاء على محض الأجسام في الأمم والشعوب

قال نابليون الأول امبراطور فرنسا (وكم ملكت من ممالك وقلوبها نافرة فلو كان الفتح فتح علم وتربية لكانت قلوب الممالك أسرع اجتماعاً حولى)

وكان يهتم بشأن المرأة ويذكر أمر تعليمها وهو في معامع القتال وكتب مرة وهو في بولونيا على ضفاف الفستولا الى وزير المعارف بباريس مانصه (إنى أحب أن تخرج البنات من المدارس فاضلات غير منقادات الى الزى والدلال صفاتهن الجاذبية من صفاء القلب ومكارم الاخلاق وأمر بتعليمهن المعانى والبيان والتاريخ ومن العلوم الطبيعية مايخرجهن من ظلمات الجهل الى نور العلم وعليهن ان يرتبن بيوتهن بأيديهن ويخطن أثوابهن خصوصاً مايختص بالرأس وأن يتعلمن صنع الأثواب للأطفال لينفعهن بذلك عند مسيس الحاجة اليهن فإنى راغب في جعل أولئك البنات نساء نافعات

فاضلات) وكان نابليون بونابرت يرهب مدام راستليكل اذا مارفعت عليه سلاح بنانها وصوبت اليه سهام يراعها فيبعث لها البعوث لتغمد سلاح قلمها وما كانت عزماتها الا ثاقبة مثل النجوم ولما أعيته الحيل رجع الى إبعادها الى سويسرا تلك هي قوة تأثير المرأة المتعلمة في الحياة القومية وذلك مبلغها من المكانة في أفئدة أساطين العلم وعلماء الحكمة

ان خير وسيلة في سبيل الاستقلال تربية الاخلاق عامة وتعليم المرأة خاصة والله يعلم إن الحرية والمجد والكرامة حظٌ كل من يجاهد في سبيل العلم ونصيب كل من يتفانى في طريق الشرف والفضيلة

هـذا ولقد كنت يوماً أتبادل الحديث مع صديقي سعادة الأستاذ الدكتور «أحمد حامى بك قاسم» فى عدة مواضيع اجتماعية ولكنها دينية أكثر منها سياسية وتنوع بنا الحديث فيما يتعلق بأحوالنا الشخصية التى هى منوطة بذات الانسان فحدثنى وهو بصدد بيان مسألة اخلاقية بما معناه «قال لى إنى ممن يرى وجوب تربية الرجل قبل المرأة حتى لا يكون لحيوانيتـه التي هى جزء معناه سلطان على نفسه فيطلب بالمرأة الضعيفة الادراك القريبة التأثير أصدافاً من النحاس عوضاً عن أن يدعها مرآة لمظاهر الانسانية أومثالاً للشرف والصون والعفاف ومهما تكن متعلمة آخذة دروس الدين حتى في مدارس الملائكة وتلك أخلاق الرجل من الدناءة وسفالة الطبع وتغلب منازع سلطة النفس على سلطان العقل مع ماأوتى من الولاية الشرعية عليها «الرجال قوّامون على النساء» فبعيد عصمتها بمحض معلوماتها وقريب (انتهاك حرمتها لفساد أخلاق الرجل وضعف إدراكها) ذلك حديث الأستاذ الدكتور وتلك حجته عليه ولست

أدرى كيف له هذا المذهب وهو معى متفق على أن المرأة أم العائلة والرجل ابنها والولد يشب على مادرسه من الاخلاق في مدرسته الأولى يوم اذ كان فى حضانة أمه طفلا ساذجاً بسيطاً ليس له من خزانة يأوى اليها أوظل يستظل تحتـه إلا ذلك الجناح الرحيم يرفرف اليه إذا ماناًى عنه ويكون له حصناً اذا مادنا منه (ان الأصول عليها ينبت الشجر)

ولقد أجمع علماء النظر فى الطبيعيات ان للمرأة فى السلطة الطبيعية مالا يدخل تحت متناول قدرة الرجل أنى كانت مداركه العقلية تنثنى به أنى شاءت متى شاءت وما هو أمام تلك المظاهر الانسانية التى وهبها الله المرأة من الوداعة والرقة والعطف الا آلة (سينماتوغرافيه) تتحرك بإرادة غيرها بلا تفـكر ولا روية ذلك حال الرجـل القوى العاقل أمام المرأة الضعيفة الادراك القريبة التأثير خصوصاً اذا كان من الجهالة والدناءة وسفالة الطبع بمكان (وهى هو) فاذا بذرت الفضيلة فى نفس المرأة وعرفت عقائد دينها ودرست القسط اللائق بها من علوم دنياها فلا ريب يشب أبناؤها على ماأخذوا عنها من فيض عفافها كما يشيبون على نموذج الفضيلة التى قادتهم اليها بمؤثراتها الطبيعية تلك سنة النظامات الاجتماعية فى الاخلاق

المحاضرة الثانية

﴿ من الباب الثانى ﴾

(فى التوازن التكوينى بين الرجل والمرأة فى نظر الشارع)

ووظيفتهما فى هذا المجتمع الانسانى

« ولهنّ مثل الذى عليهنّ بالمعروف »

« قرآن شريف »

مبدء العمران وأصل هذا العقد الاجتماعى ذلك الأثر الكبير لواجب الوجود) (الانسان) وما كان له من نفسه للرجوع اليه في الشكوى لما يتولد عن ذلك التفاعل تصارع القوى المتباينة بعوامل الانفعالات التى تبدو تحت جو سماء الحياة في سبيل التسابق العمرانى سنة الله فى الملك (خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة) ومن ذرأ هذا الكون من عالم العدم على أبدع مثال قادر على استخلافه بكون آخر ويستخلف من بعدكم مايشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين)

تحار الألباب ولابدع اذا تباينت مذاهب الحكماء أوتخبطت مدارك العقلاء فى عالم الله الذى كونه وجعل لكل نوع ما كان لبذرته من القوى التى تمده فى سبيل مايشغله من الفراغ الذى فرض الله عليه أن يشغله فى هذه الحياة

قضت حكمة الحكيم الأعلى أن لا سبيل الى حركة دوران رحى هذا العمران إلا على أس سننه فى تكوين خلقه ذلك التكوين الآلهى

الذى يزاول كل به وظيفته المحدودة فلا يحاول به محالا ولا يهتك به حرمة وهبه الشارع إياها

ان للمرأة من الوظيفة ماليس للرجـل وللرجل من العمل ماليس للمرأة ولو نزعت نفس أحدهما إلى أن يتناول وظيفة الآخر لـكان بعيدا عن عصمة نفسه من ارتـكاب جريمة أوهتك حرمة ذلك لأنه حمل عبئاً ثقيلا لم يكن من متناول قدرته حمله

جاء الاسلام بجذ جذور الوحشية وجعل للمرأة حرمة مخصوصة يجب علينا أن نفتح لها بابا من العلم والعمل بقـدر ما لا يسلبها حرمتها أو يحط بكرامتها ويخرجها عن دائرة تـكوينها فهى، إن كانت أم العائلة ولـكنها أضعف من الرجل فى مداركها العقلية وقواها الارادية . جاء الاسلام فحررها واتخذ لها فى حيز الوجود مكاناً قصياً بعد أن كانت فى الجاهلية رقيقة مستعبدة

ولقد روى عن ابن عباس انه قال (كانوا اذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاء زوجها فهم أحق بها من (أهلها) ولـكنه جعل للرجل حق التسلط عليها ذلك بما أوتى من المدارك العقلية والقوى الإرادية لما من شأنه أن يكون من وظيفته كالانفاق عليها والجهاد في سبيل احتفاظ حرمتها والنبوة وما ضارع ذلك من الوظائف التى يقصر عندها ماللمرأة من قواها الطبيعية

إن الشارع لم يحرم عليها أن تأخـذ من العلم بقدر ما يعدها فى تأدية وظيفتها من تربية الولد وتدبير المنزل وأن تعرف ما يجب لها ويحق عليها حتى تـكون فاضلة عالمة بدينها وسنن دنياها التى ترجع فى وظيفتها اليها

ولقد روى عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت يغزو الرجال ولا يغزو

النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله (ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن)

وأخرج ابن جرير عن الحسن أن رجلاً من الأنصار لطم امرأته فجاءت تلتمس القصاص فجعل النبي صلى الله عليه وسلم بينهما القصاص فنزلت (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه) (ونزلت الرجال قوّامون على النساء الآية)

ومن العبث أن نلبسها ثوباً لم يكن لها فنفتح لها باب التعليم بلا قيد ولاحد حتى تكون بصنيعنا رجلا بعد أن خلقها الله أنثى (وما كان لرجل أن يكون أنثى وما كان لأنثى أن تكون رجلا) اللهم إنك تعلم أن هذا خروج عن النواميس الطبيعية

لقد قضت حكمة الله أن يجعل من كلٍ زوجين اثنين ليخلق بذلك في القلوب عوامل الميل والائتلاف بما يشتركان فيه من التكوين السببي ومن ثمة تقوم صروح العمران على صلات المحبة بداعي ذلك الوازع الطبيعي أو التأثير السببي في بقاء حياة الجمعية الانسانية بما يتعاونان فيه من التشارك في التوالد الكافل بتعمير الانسان في الحياة الأولى أجلا محدودا

لا يفضل الرجل المرأة في تأدية هذه الوظيفة كما لا تفضل المرأة الرجل في تأديتها وإنما النسبة بينهما في هذا القدر من الاشتراك في هذا التأثير السببي في بقاء العمران متساوية .

لهذا التوازن بينهما في تأدية هذه الوظيفة الاستمارية جعل الشارع للمرأة من الحق على الرجل مثل ماجعل للرجل من الحق على المراة (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) لافضل لأحدهما على الآخر في هذا الباب

بقى علينا أن نشرح مسألة المرأة التى هى عمل الكتاب فى هذه الأيام الأخيرة حتى لقد يظن بعض المتمدينين بالمدنية الأوروبية أنه لم يبق تحت جو سماء مصر من ضروب الاحن والتمثيل بمعالم الدين سوى هذا الرزء « جهل المرأة (الشرقية) فهمّ بعض العابثين بالمدنية الاسلامية يحررون المرأة تحريراً أوروبيا

عبثوا بالحجاب المقرر فى شريعتهم نصاً أوضمناً وقالوا إن هى إلا مذاهب الفقهاء مالهم بذلك من علم إلا اتباع الظن ونسوا أن هذا التشريع المحكم لا يتفق مع الجمود ولكنه يتصرف فى حكمه على مايعتمد عليه من القرائن والظروف المحيطة بالحوادث

ندع هؤلاء المتمدينين الذين لا يريدون أن يكونوا إسلاميين شرقيين بل وثنيين غربيين (باسم العلم والفلسفة) والله يعلم إنها لهي الجهالة المحضة ندعهم يهيمون بهذا التمدن الغربى ونتكلم عن المرأة من ستة أمور . مركزها فى الجاهلية . قيمتها بعد الاسلام . وظيفتها فى المجتمع . مايجب لها من العلم . نسبتها للرجل فى القوة الادراكية . حاجتها الى الحجاب

هذا هو الذي يجب أن نعرفه من رأى الاسلام عن المرأة فنحاسب به أنفسنا بعد تحرير عقولنا من ذلك الرق (التقليد الغربي)

أما قيمتها فى الجاهلية فقد فصلناه فى المحاضرة السابقة

ولما جاء الاسلام حررها تحريرا كماليا يليق بشأنها واتخذ لها من مقاعد الحياة العمرانية بجوار الرجل لاشتراكهما فى تكوين العائلة الانسانية مكاناً قصيا ولم يبخسها حقها معه الذى كان ضائعا فى الجاهلية بل جعل لها على الرجل من الحق كما فصلنا بقدر ماجعل للرجل عليها (ولهن مثل الذى

عليهن بالمعروف) أجل جعل للرجل درجة على المرأة لم تكن لها هي عليه (وللرجال عليهنّ درجة) ذلك بما أنفقوا من أموالهم (الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) وكن يردن أن يكون لهن من العمل ما يأخذن عليه الأجر على نحو الرجال فنزل ذلك الذكر الحكيم (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) أما ما يجب للمرأة من العلم فذلك يكون على نحو ما تقتضيه النواميس الطبيعية ولا يخرج عن متناول القدرة البشرية (وليس الذكر كالأنثى) لم تحجب الشريعة الاسلامية نور العلم عن بنى آدم أنّى كان ومتى كان ولكن يجب أن نكون حكماء فى التعليم

نعطى الطفل حظاً يسيراً من القضايا الأولية ثم ننتقل به تدريجا كلما استعدت ملكاته للنظر وهكذا نسير به وراء ذلك المصباح العلمى حتى يصير إماماً حكيماً بفضل الحكمة فى سير التعليم وتلقين العقول آيات الحكمة على ذلك النحو الدستورى العملى لا مايسلكه بعض الحمقى فى تعليمهم الاستبدادى الذى لا يتفق مع النجاح الحقيقى والعلم الصحيح ولا ينتقل بالمتعلم خطوة الى الامام

كذلك الأمر فى الجندى لايخرج إلى المبارزة فى ميادين القتال إلا بعد أن نعلمه بالقدر الذى يأتلف مع مداركه وكيف تكون الرماية فاذا أحسنها سلمناه سيف المبارزة فيصبح بفضل الحكمة فى أخذ دروس الحربية من المجاهدين الأبطال

ذلك هو الأمر بعينه اذا ألقيت نظرة صحيحة على المرأة وما الذى

يجب ان تأخذه من العلم فى سياسة إدارة وظيفتها التى قد قضت السنة العمرانية بتقليدها لها تدبير المنزل وتربية الولد ومعرفة حساب غلتها وعلمها بمقدار نفسها لتعمل على عصمة حرماتها . هذه وظيفتها فى الهيئة الاجتماعية تفرض عليها أن تأخذ من العلم بمقدار مايساعدها على سد ذلك الفراغ وان استزادت من الكماليات شيئا فوق الحاجة فهو خير وأحسن مآلا

لم يمسك الاسلام بنور العلم عن المرأة فقال الشارع (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وعظم العلم والعلماء وشدد النكير على الجهل وحط الجاهلين (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) هكذا هو مذهب الاسلام فى المطالبة بالعلم وليس فى الكتاب أوالسنة نص واحد يدل على تخصيص الرجل بالعلم وحجب المرأة عن استظلالها تحت سماء العرفان وكنّ فى العرب كثيرات العدد يكتبن ويقلن الشعر ويخطبن فى الناس (راجع المحاضرة السابقة)

من أجل هذا نقول إن الاسلام لم يحدد للمرأة حداً تقف عنده فى سبيل أخذ العلم ولكنه جعل لها فى الكون وظيفة عمرانية . تدبير المنزل وتربية الولد . وكلف الرجل بالسعي للانفاق عليها لما له من حق الاستئثار بها ولم يقف عند هذا الحد بل شرح لنا النسبة بينها وبين الرجل من جهة الملكات الفكرية فرفع مدارك الرجل ونزل بمداركها

انظر كيف جعل شهادة الرجل بشهادة امرأتين (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) وكيف قرر فى الميراث (للذكر مثل حظ الأنثيين) ذلك لانه يعلم أن الرجل أكثر حاجة من المرأة لاتساع دائرة

وظيفته فى كل ضروب الأمور الحيوية ولأن الرجل بطبيعته واستعداده الفطرى أسمى إدرا كاً من المرأة فيقدر على مغالبة نفسه في سبيل احتفاظ مابيديه من عادية ذلك الضعف الادرا كي في جانب المرأة وذلك هو الطلاق قد سلمه الشارع بيد الرجل فلم يملكها طلاق نفسها إذا هى نشزت ولكنه جعل هـذا السلطان الكبير يجلس على عرش سماءه الرجل لأنه قادر على نفسه منها عالم بشعوره خطر الزوجية وقيمتها من الاحترام ومكانتها الوظيفية في عالم الوجود ولو كان هـذا الحق بيد المرأة لهدمت صرح التكوين العائلى ونشزت لصغائر الأمور وطلقت نفسها لانها لا ترمى بنظرها القاصر الا وراء كيف تعيش في عالم الزخرف والترف

الرجل مهما يكن جاهلا فهو يشعر بقيمة الزوجيـة بوازع ذلك العقد الاجتماعى العائلى وهذا الوازع علمه مالم يكن يعلم فتراه يمسك بنفسه إذا هي أثارت به عوامل الغضب ويستلذ بما ينزل به من عوامل الآلام في سبيل استحصال رزق عياله وما ذلك العطف الوجداني الذى يجعله سعيد البال فى وقت الشقاء الجسمانى الا وازع التأثير بقيمة الزوجية

هذا صنف من الرجال حيال هـذا المركز الزوجى وهناك أصناف متباينة فى أطوارهم بنسبة تباين مكانتهم علماً وجهالة فنهم الأحمق الذى لايستطيع أن يغالب نفسه إذا هى أثارت فيـه عوامل الغضب فيعامل المرأة بكل أصناف الرذائل ويمسك على الطلاق حباً فى إمسا كها أوسعياً وراء احراج مركزها وتعذيبها بما ينزله بها من ضروب الحيف والاهانة وهذا النوع ليس من بنى آدم فى شئ (ولكل قاعدة شذوذ) وخير الناس من ملك قياد المرأة على النحو الذى رسـمه الشارع (فامساك بمعروف

أوتسريح باحسان)

هـذا هو مركز المرأة في أطوارها الخمس ويرى الناظر في وظيفتها أنها لا تكلفها بأن تعلم علوم الفلك والنجوم ولا تبعثها على الاحاطة بعلم الحقوق والفلسفة والمنطق والطبيعة لتكون كما كان أرسطو أو لتحل محل ابن سينا لأن استعدادها الادراكي ينزل بها عن أن تتخذ مكانة الرجل بالنظر في ملكوت السموات والأرض وإن كانت باعتبار أنها انسان مدرك تقدر على نظر مالا يعلو بها الى مكانة الرجل في هذا الباب من القدرة على إدراك كنه كثير من الكائنات

قلنا إن الاسلام لم يحجبها عن نور العلم ولكنه علمنا قيمة ملكاتها الادراكية التي لو أرادت ان تأخذ من العلم مايعلو على اكتناهه في جانب استعدادها الفكري لكانت كالراقم على الماء في مسعاها وخير مالها أن تأخذ ماتؤدي به وظيفتها وتعصم به حرمتها كعلوم تدبير المنزل على اختلاف أنواعها وعلوم الرياضة بقدر ادارة شؤونها والفقه وعلم الاخلاق وتفسير القرآن والسنة على الاجمال حتى تكون مسلمة تعرف فوق اسم الدين شيأ من الدين وذلك أكبر قائد لها على السير بشؤون الزوجية التي هي مناط أساس السعادة في الامم وأصل التكوين

إنا لا نريد أن نحبس المرأة عن التحرير الذي شرع لها الاسلام ولا نذهب مذاهب كثير من الشرقيين الذين نزلوا بالمرأة الى حضيض التعاسة وظنوا أنها ماخلقت الا لتأدية الشهوة البهيمية عبثوا بدين الله فولاهم الله قبلة ماشاؤا

وأصبحت المرأة مصيبة أخرى بجانب هذه الخطوب المتفاقمة وجنح

المتمدينون من الأمة يميلون إلى العذوبة فرارا من مقارنة تلك الداهية الدهماء (المرأة الجاهلة) فروا منها وهى صنيعهم الجديد الذى أماته الاسلام يوم ان كان واقفا على رجليه في ربوع الجاهلية يقتلون أنفسهم بأيديهم (وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

وسنتكلم عن الحجاب في الكلمة التى تأتى بعد لانه عمل الكتاب في أيامنا الاخرى يريدون أن يرفعوا المرأة ويحرروها بالقضاء عليها كما شاء التمدن الأوروبى لا كما قضت مدنية الاسلام اللهم علمنا ديننا الذى شئت لنا (وانك لتهدى من تشاء الى صراط مستقيم)

المحاضرة الثالثة

﴿ من الباب الثانى فى الحجاب والاشارة الى قول الله ﴾

« ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء »
« المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن »
« ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وإذا »
« سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب »
« قرآن شريف »

قلنا إن المرأة مكونة مع الرجل للجمعية الانسانية وهى الاصل الثانى الذى انتشر منه بنو آدم في هذا العمران وأن أطوارها ترجع الى أمور ستة قيمتها فى الجاهلية — مركزها بعد الاسلام — وظيفتها فى المجتمع — مايجب لها من العلم — النسبة بينها وبين الرجل فى الملكات الادراكيه —

ضرورة الحجاب في سبيل حفظ كرامتها وعصمة حرماتها من عادية الانتهاك باحدى القوتين الكامنتين فى الانسان — السلطة النفسية وهذا هو القسم السادس الذى وعدنا القراء بشرحه فى هذه الكلمة على النحو الذى علمناه من أخلاق صاحب الشريعة الاسلامية .

قدمنا أن الانسان بنوعيه مقهور لعوامل الطبيعة تراه ان كان حكيما (والحكيم قليل) فى حروب وقتال مع تلك السلطة البهيمية والسواد الاعظم فى هذا التغالب مغلوب ومهما هذبت النفس وهزمت جيوشها العدوانية وآويتها فى حضانتها الى صدر الاخلاق الفاضلة بما تلقيه اليها من دروس العلم والحكمة فلا بد هي فى يوم تنازعك فى أطوارك الجديدة بحكم عوامل فطرتها وربما صارعتك فغلبتك فى بعض هذا التفاعل فتستدرجك إلى حيث تهلك اللهم إلا اذا رأيت برهان ربك فحال بينك وبين غايتها فيصيبك إذاً حكم العصمة وما ذلك إلا للانبياء والمرسلين (ان النفس لأمارة بالسوء)

والمرأة أضعف جانبا من الرجل فى هذا كله فمن الظلم أن تبيح ذلك الاختلاط المغناطيسى وتمدين بمدنيـة أوروبا فتكشف الحجاب عن المرأة حتى تأخذ من بلاد الغرب من ضروب الميراث مالم يكن مشروعا فى أخلاق الاسلام وأنت من المسلمين

صاحب الشريعة حكيم فيما شرع وليس من أخلاقه الجمود والتقييد بقيد الحروف والالفاظ بل لكل لفظ منطوق ومفهوم وفى الاحكام رخصة وعزيمة ذلك معتبر في نظر الشارع وجار على سنن الحوادث فى كل زمان

انظر كيف رخص للمسافر حكم الفطر بعد ان كان الصوم عزيمة وكيف أجاز النطق بكلمة الكفر عند الاكراه مادام القلب مطمئنا بالايمان

وكيف حرم نكاح الأخوات بعد أن كان جائزا فى مبدأ العمران في زمن آدم عليه الصلاة والسلام

من أجل ذلك نسير مع الذين ينكرون الحجاب فى الاسلام ويدعون أنه افتراء فقهي وصل اليه المجتهدون بتحصيل الظن بالاحكام نسير معهم فى أن الحجاب لم يكن معروفا بصريح العبارة فى كتاب الله ولكنه مفهوم من السياق واستقراء أخلاق الشارع الاسلامى والنظر الى روح التشريع .

انا لو أعرنا الدين نظرة صحيحة لوجدناه ينقم على القائلين بالسفور ومالناوهذا الخلط ونحن اذا درسنا أخلاق المسلمين فى هذه القرون الاخيرة ومانزلت اليه من السفالة والانحطاط حتى ليتخيل الناظر أن قد أصبحوا فى صعيد واحد مع البهائم لقلنا بوجوب تعدد الحجاب لا بحجاب واحد ولفضلنا وجوب نفي المرأة الى حيث لا يبصرها الرجل إلا ما كانت حلالا له بطريق العقد الشرعى ولأويناها الى قمم الجبال وبنينا لها القصور المشيدة في أعين البحار المتلاطمة بالامواج لابعادها عن هذا الوباء القاتل كما كان يعمل بعض الملوك ببناتهم مما تراه مسطوراً فى بعض الاقاصيص الخرافية .

إنا لو أنكرنا الحجاب فى الاسلام خصوصا فى هذا القرن الأخير الذى قد قوضت فيه الفضيلة فأصبح الناس لا يرون لهم إلهاً معبوداً إلا شهواتهم البهيمية لكنا مع الذين نسوا الله وكتابه فأنساهم أنفسهم ولكان ذلك ضربا من الاعتراف بتقرير الفجور فى هذا التشريع المحكم .

نعترف بهذا وننكر ذاك أنّى شاءت نفوسنا باسم الاسلام ولكن الله ينسخ مايلقى الشيطان ويحكم آياته رضيت بذلك المدنية الاوروبية أم غضبت والعلم الصحيح كما قال الاستاذ (هربرت سبنسر) عدو الأوهام

المتداولة بين الناس لايعدو الى الدين الحق وان حاول ذلك الواهمون .

كل هذا الذى قلناه على ضرب من التنزل مع أولئك المتمدينين بالمدنية الاوروبيــة وإلا فقد سجل الشارع الحكيم على المرأة ضرورة الحجاب لحفظ كرامتها والفرار من انتهاك حرماتها وأىُّ تصريح بعد قول الله (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منهــا وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ومن العدوان على الشارع أن نذهب بالتشريع أنى شاءت نفوسنا فنخرج وجه المرأة عن الزينة أو أنه منها ولكنه يدخل تحت حكم الاستثناء (الا ماظهر منها) مذهب يبرأ منه الله ورسوله وأهل العلم أجمعون .

إن الزينة الفردية فى المرأة ترجع الى وجهها وليس فيها من زينة سواه وما كان وراء ذلك من خلقها فهو كتلة جمادية فبشير ذلك الجمال فى الخلق وتلك الوداعــة فى الخلق انما هو ذلك الجمال الوجهى الذى هو مظهر من مظاهر الله تعالى فى الوجود .

ترى الناس أطواراً متباينة فى الأخلاق وعنوان كل خُلق جميل فى الغالب انما هو الخلق الجميل فى الصورة وقد يكون جميل الخُلُق فظيع الخلق (ولكل قاعدة شذوذ)

من أجل ذلك نقول ان الوجه وحده هو رسول الميل وداعى النظر وبشير السلام ونذير الخيانة وأستاذ الوجــدان يملك كلٌّ أخاه به فاذا التقى الرجل بالمرأة وجها لوجه عقدوا من آيات الفناء ما عقدوا ونبذوا من عهد الامانة ما أضمرته قلوبهم مما أوحت به تلك الوجوه المتقابلة فيسود السلام أو يكثر الفساد فى الارض ولا سبيل الى الاول لما قلنا من أن سنة التصارع بين القوتين النفسية والروحية قد قضت بغلبة الاولى على الثانية (إن النفس

لأمارة بالسوء) والانسان أطوع لما توحيه اليه فليس فيه من القوة ما به يغالبها (وخلق الانسان ضعيفاً) إنا اذا عرفنا هـذه الحقيقة الواضحة وهى أن أكبر زينة فى المرأة ترجع الى وجهها أو الوجه هو كل زينتها ثم فسرنا قوله (ويبـدين زينتهن الا ماظهر منها) على معنى أن الوجه والـكفين فى حكم الاستثناء (أى الا وجهها وكفيها) لـكان معنى ذلك ان المستثنى منه الذى يحرم كشفه هو بعينه المستثنى الجائز الظهور فيكون الشىء الواحـد محرم الكشف والظهور فى الوقت الجائز فيه فكأنه قال (ولا يبدين زينتهن) أى الوجه الذى يحرم النظر اليه الا ما ظهر منها فيكون جائز الكشف حرامه فى آن واحد وهو ضرب من التلاعب بأحكام الله

نتنزل مع المتمدينين بالمدنية الاوروبية شيئاً من التنزل ونقول معهم ان هذه الآية مع صراحتها بوجوب الحجاب لاشاهـد فيها ولكن ماحكم هذه المدنية الغربية فى قوله تعالى (ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) هل نقول فى ذلك يدنين عليهن من جلابيبهن الا الوجه

إنا اذا ذهبنا هذا المذهب يجب ان نقرر حقيقة جديدة وهى أن التعارف لا يكون بالوجه وانما عـايشاء المتمدين الاوروبى التعارف بالاشباح المتحركة التى ليس لها من الرسم ما يعطيها امتيازها أو تميزها عن الاخرى بأكثر من السرعـة أو البطء فى تلك الحركة المعروفة .

وكان العرب فى الجاهلية يتعرضون للاماء من النسوة فلما جاء الشارع الاسلامى ميز الحرائر عن غيرهن حتى لا يتعرض لهن بهذا الحجاب المأمور به فى قوله (قل لازواجـك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من

جلابيبهن) وزد على ذلك ان الحكم في زوجات النبي في شأن الحجاب هو بعينه الحكم في نساء المؤمنين (واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن)

متفرقات

﴿ البدعة والضلالة في الدين ﴾

(هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون)

ضلت الأفهام في مراميها وجمدت عقول الناظرين في ميادين مجاريها فلم تصرف لبراعة كاتب ولا لذرابة خطيب وألقت حبال العادات الدخيلة في الدين على غاربها تعبث بمن شاءت كأن لا أثر لقوله جل وعلا (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الخاصة من العامة كالمقدمة من الجيش أوكالسلطان من الجند أوكالبصير من الأعمى فكلما أحسن الأول والثالث قيادته أوفكر الثاني وأخلص نفسه في أن يسوس جنده كان ذلك ولا ريب أسلم لسعادته وأقرب لنجاته وأقوم لحياته تلك هي قبلة من أراد أن ينتظم في مصاف الاحياء من الأمم وما كان الله ليبخس عاملا نصيب عمله

تمر علينا الحوادث وتقع بنا الكوارث فنطاردها بمفرد من الكلم مطاردة الابطال ونسبح مع السابحين في الخيال ذلك هو قولنا (دع الخلق للخالق) دع الدين لصاحب الدين نقول ذلك قياساً على قول عبد المطلب لأبرهة الحبشي الذي هم بهدم معبدهم وقد استاق جنده عدداً من الابل لما

سأله استرداد إبله فاستغرب مطلبه (أنا رب الإبل أما البيت فله رب يحميه) ذلك هو أثر الأنبياء والمرسلين تلك هى نهضة العلماء المتقدمين لاتدع العامة يتسلون بشريعتهم فيعبدون الأصنام جهاراً وهاهى أعتاب الفولى وتقبيل أعمدة المدبولى أصبحت تكاد أن تزاحم البديهة فى الجلاء ولقد حدثنا يوماً المرحوم مفتى الديار الأسبق الشيخ محمد عبده أن أجنبياً قد زار الأزهر المعمور فقابله فضيلته وكان المولد الحسينى اذ ذاك منعقداً تتزاحم فيه الحانات فاستفسر من الأستاذ بلغته الفرنسية هل هذا من الدين فقال له (لا) بل هى عادات مصرية ليست من الدين فى شئ وكثير ماهى فى جميع الأمم الأجنبية وإن تباينت شكلا وصورة حتى هم رضى الله عنه لاتمام مشروعه من القضاء على تلك المفتريات التى ما أنزل الله بها من سلطان فى كتاب أو سنة

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين وهم فى عبادتهم بآباءهم مقتدون جاء فذم عقولهم وسفه أحلامهم وقضى على الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وفرض على كل أن يقول قول ابراهيم (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) جاء فصرح بأنه قريب للعبد اذا مادعاه (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ونحن أقرب إليهم من حبل الوريد)

أين هذا الأصل من ذلك الشرك الذى أصبح يتهافت اليه المتهافتون ويحوم حول حياضه الواهمون (ان صلاتى ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له)

تبا لقوم يعلم الله انهم قد مثلوا بمعالم دينهم وخالفوا أصول شريعتهم

فأصبحوا مثلا للمستهزئين وسخرية في أفواه الساخرين

ولقد خرجت يوماً الى قصر النيل فى ساعة البكرة لاستنشاق الهواء وكنت إذ ذاك وحيداً مفردا أعلل النفس بالآمال وأوطنها على مقاسات عناء الاعمال وأجرعها غصص المخالفة وأكلفها بالقيام بمهام مقاصد الحياة كل هـذا لم يمسك بنظرى عن أن يتمتع بمناظر طبيعية أوهيا كل صناعية أواشباح حيوانية أو آلات اختراعية فظللت بين أنظار وأفكار واستقبال وإدبار فرأيت مشهدا عددته أعجب من كل هذه المشاهد

رأيت مجتمعا من القوم وأنا على بعد مرمى السهم منهم يتزاحمون على التقرب من انسان بينهم لا كالناس رجل له غدائر قد نشرها على كتفيه وهو على حالة لا يرضاها الشرع ولا يحسنها العقل فقلت ياقوم مالكم وهذا المريض دعوه أوارحموه (ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) فلم أجد الا ساخطا يجيبنى لا بل هو ولىّ الله يظهر بمظهر الضعفاء ويعمل عمل الأدنياء (اسكت الحقيقة غير الشرع) وهم مع ذلك صرعى بحبه يتعلقون منه بالأذيال ويعلقون عليه الآمال . آه أهذه مذاهب العقلاء أذلك يرضى الأولياء أم تلك شريعة الأنبياء لا بل هى الحيرة تأخذ بذويها الى هاوية تؤديهم الى فناء . ومتى خرست السـنة أهل السنة طالت أقاويل أهـل البدعـة وذهب العامة بدينهم كل مذهب (ان الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ)

(شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)

ان ملاك سعادة كل أمة وقوام حياتها قد حصرته سنة النظر بطبيعتها

فى عاملين عظيمين كلاهما لازم للآخر (المال والعلم) وإن صح أن يكون الأول حداً أوسط لمقدمات قياس نتيجته الثانى فالنتيجة ولا ريب يتولد عنها ربوع من الحياة في معترك الحياة يتولد عنها حصون مشيدة من رابطة الإخاء تحاكى الفرقد فى سماء علاه يتولد عنها سيوف تقطع اسنتها جراثيم البدعة من بذورها وتستأصل ضروب الضلالة من جذورها (هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) الأمم فى رقيها بعملها وصحيح اعتقادها بعلمها أوبعبارة أخرى انحطاطها بجهلها واعتلال عقيدتها بأصولها جرياعلى العادات وضرباً عن العقائد أشبه نوعاً بالانسان في تكوينه من عالمين متباينين صورتين متنازعتين كلتاهما تنزع الى ماتنفر منه الأخرى اذا ماتغالبتا فالسلطان للناصر ذلك هو أنه أرضيٌّ سفليٌّ وعلويٌّ سماويٌّ فكلما راض نفسه على أصول شريعته وركن الى آيات عقله بعد أن أمدّه من فيض سحاب النظر وأطلق عنانه من رباط ربقة التقليد كان الثانى والا فلا مندوحة له من السقوط فى هاوية الأول

ذلك هو كتاب الله بين أيدينا ينادينا بفضيلة التضامن والاخاء بفضيلة التعاضد والوفاء بفضيلة النظر فى عالم الأرض وعالم السماء (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض) ينادينا بأن دين الله في كل زمان واحد (إن الدين عند الله الاسلام) (أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ونحن والحمد لله صرنا بفضل الانقياد الى العادات افراداً وبفضيلة الشغب فى الدين جماعات وأعداداً كل طائفة تعمل لما يحفظ نظامها ويسد حاجتها

أولئك الذين قتلهم حب الرئاسة فهموا اليها ولما عسر توحيدها عليهم لجأوا الى الالقاب لتعدد الاحزاب

رحمك الله أيتها الأمة أأنت أمة الأمس (لا) وأيم الحق بل أمة اليوم فهل لنا من نائحة تندب حظ الاسلام (لا) لا أقول الاسلام ولكن حظ المسلمين

أمور تضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

فهلموا بنا ياحماة الدين إلى حماية الدين واشحذوا يارجال الصحافة يراعكم لمطاردة هذا الخطب المبين . آه ماهوى بنا الى تلك الهاوية الا اقامة البدعة وما حدى بالغربيين الى تلك المظاهرة علينا الا ماتردته الطبقة الثالثة منا من ثياب الضلالة (أجيبوا داعى الله) (من يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره)

****

نظرة تاريخية

روى لنا التاريخ مجد مصر وما كان لها من السؤدد فى معامع الحياة حتى كانت بشهادة حكماء الغربيين ومؤرخيهم من أعظم دول الأرض تمدناً وحضارة وأقواها شوكة ومنعة وأوفرها ثروة ورفاهية

كانت مشرقاً للعلوم والمعارف تنبع منها آيات الحكمة ولقد توافد اليها كثير من فلاسفة وحكماء اليونان ليقتطفوا ثمار حضارتها ويتغذوا من ألبان معارفها

(تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار)

أما الدول التى حكمتها قبل الفتح الاسلامى فلا تجاوز ستاً وثلاثين دولة متباينة الجنس بين مصريٍّ وفارسيٍّ وراعيٍّ وتترى . وانتهت مدة حكمهم

قبل الهجرة النبوية بتسعمائة وأربع وخمسين سنة وبانقراضها دخلها اسكندر ذوالقرنين وشيد مدينة الاسكندرية ثم خلفته الدولة البطليموسية وبانقراضها حل الرومان محلها وبانقسامها بقيت مصر في يد القسم الشرقي ثم آلت عنوة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في محرم سنة ٢٠ من الهجرة فبعث لها عمرو بن العاص والياً عليها وتتالت بعده الولاة من قبل ملوك الاسلام أمويين وعباسيين حتى صارت مملكة مستقلة في عهد أحمد ابن طولون

وهكذا تصرفت فيها سنة الانتقال من طور الى آخر حتى أصبحت ولاية عثمانية يحتلها الانكليز احتلالاً مؤقتاً بنص الفرمانات والمعاهدات الدولية . أما أهلها فكما ترى قوم ذوو وداعة وبشاشة وعفة وأمانة يحسنون وفادة النزيل في بلادهم ويؤثرونه على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة اخلاق فاضلة قد عدها الأجنبي فيهم جبناً قسم من المزايا التي قد انفرد بها الشرقي على ماسواه من سائر الأمم في جميع انحاء العالم المتمدن

ظلت مصر تتبختر في ربوع العلم وتتيه على سائر الامصار بما لها من المدنية والحضارة حتى أحاطت بها ظروف سقط فيها نجم العلم وارتفع وابتدأ ذلك من أواخر القرن السادس عشر للميلاد وقتئذ كانت السلطة فيها للبيكاوات من المماليك بسبب نزاع تطاير شرره وانجلت سحب غيومه باستيلاء الغربيين على مصر تحت قيادة نابليون بونابرت

وقد لبست مصر في ذلك العهد من ثياب الذل والمسكنة ماقد أضرم نار الأسف بأفئدة بنيها العارفين بمجدها القديم ولما تناول زمام سلطتها المرحوم محمد علي باشا الكبير جد الأسرة الكريمة الخديوية ابتدأت تسترد

مافقدت وتسترجع نصيبها من المدنية والحضارة التى قدسلبتها منها يدالجهالة والظلم قامت فنفضت عن جسمها غبار الذل والمسكنة بعد أن انقضى ذلك الزمن الذى تكاسفت فيه سحب الجهالة وخيمت فيه المظالم بعروش صروحها فاتسع فيها نطاق الزراعه والصناعة وتنوعت المعامل وانتشرت المدارس حتى كانت منبع الفنون ومهبط العلوم

اتفقت كلمة حكماء العمران وساسة النظامات الاجتماعية وعلماء الحياة القومية على ان لاسبيل الى استقلال أمة أوارتقائها الى سماء العالم المتمدن الا بتربية أخلاقها وتهذيب نفوسها

وانما الامم الاخلاق مابقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

كما أجمعوا على أن أدوار الحياة ثلاث تيقظ فتفكر فعمل . وقد حكم الناظرون بأنا لم نجاوز الا دورى التيقظ والتفكير فمن الواجب أن نهب الى العمل ليعلم الأجنبي كيف يحترم شعورنا)

بقى فى النفس كلمة أخرى يصح أن تكون تتمة لما أجملناه فى الكلام على الشورى

وما كان لنا الا ماعلمنا من أنفسنا وما كنا للغيب حافظين فالانسان بطبعه نازع الى الحرية نافر من الاستئثار جموح بحكم عوالم خلقه الى ينبوع بمده فى بقاء حياته أواحترام نوعه بعدم سلبه أكبر حق مقدس طبيعى له ذلك هو ماخلقه الله فى تكوينه من معنى الارادة والاختيار ولقد ذهب عدد ليس بقليل من علماء الاخلاق الى أن الحرية شطر من الانسان وهى عنوان العدل الذى هو قوام نظام العالم ويحسن بى هنا أن أستعير شيئا مما كتبه أرسطو فى كتابه الذى وضعه فى السياسة قال فى باب الحكمة

مانصه « العالم بستان سياجه الدولة . الدولة سلطان تحيا به السنة . السنة سياسة يسوسها الملك . الملك نظام يعضده الجند . الجند أعوان يكفلهم المال . المال رزق تجمعه الرعية . الرعية عبيد يكنفهم العدل . العدل مألوف وبه قوام العالم . العالم بستان الخ »

كلمات حكمية هى ترجمان قلوب متضامنة يرى القارئ من ثناياها اذا هى تبسمت برقا يضئ على أندية الناشدين اليها تضامن ربط أعلى رأس فى الوجود بأدناها وفيه الضمانة لحياة الافراد فى كل أمة

هكذا كانت دولة الانسان تعلو فى تكوينها كلما كان مسرح حريتها متنائى الاطراف شاسع الفضاء لايضيق بها اذا هى وقفت تذب عن حوزة حرمتها والعكس بالعكس فاذا ماهى ذبلت بعامل الرق أو الحرية الصورية الموهومة وهنت أركان مجدها وصغرت آمالها أو أمانيها فتصبح خاوية على عروشها غير قادرة على مسابقة الأمم الحية فى ميادين العمران ولا مستطيعة دفاع عادية من أعدائها بأكثر من انزوائها وانكماشها فى زاوية كهف من كهوف رقها المشؤوم...

علمتنا حوادث الأيام مالم نكن نعلمه وأصبحنا اليوم ولا ريب فى برزخ بين الماضى والمستقبل فاما جمود عن العمل يعقبه موت وإما خروج من دور القول الى عالم الفعل وثمة تكون الحياة ...

ولقد كانت رقابة الأمة على القادة فى صدر الاسلام سائدة فسيحة المسرح تمثل الرعية كل يوم أمام راعيها من روايات آيات الحرية ماجعلها مع قلة عددها وعددها وكثرة اعدائها شديدة البطش عظيمة المنعة لما لها من الثروة العلميه التى عرفت بها حق الراعى على الرعية

وعنـدى أن الحرية لاتعطى لأمة الا اذا أخـذت من الدين قسطاً وافراً يعلمها مكانتهابجانب مكانة راعيها والاحلت الفوضى بينهم محل النظام الاجتماعى الدينى

بلغت رقابتها الى حد أن قام أعرابىٌّ ساذج بسيط وعمر يخطب القوم بقوله (ان وجدتموني على خير فأعينونى وإلا فقومونى) فقال ذلك الأعرابى والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً ياعمر لقوّمناه بحدسيوفنا

بلغ أمر الحرية في صدر الاسلام الى حد أن امرأة من نساء العرب ردت على ابن الخطاب رضى الله عنـه لما وصلها أنه نهى المغالاة فى المهر فقالت أيعطينا الله بقوله (وآتيتم احـداهنّ قنطاراً) ويمنعنا عمر فقال « كل أفقه من عمر حتى المخـدرات » ولم يكن له من العزة والاكبار مايرفعه عن قبول الحق من امرأة

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)

خطاب

« في حفلة عيد الجلوس الخديوي »

ألقينا هذا الخطاب في حفلة عيدجلوس سمو مولانا العباس في يناير سنة ٩١١ وقد مثل شخص سموه في تلك الحفلة مندوبان ساميان أحدهما صاحب السعادة محمود بيك محمد رئيس بالديوان الخديوى »

ولقد كانت تلك الحفلة شائقة تحفها المهابة والاجلال الملوكى العباسى

أما الخطاب فهذا نصه

أيها السادة أيها الاخوان

ما كنت لأقف الساعة بينكم هـذا الموقف لأستقرئ الآثار العباسية (كلا) فكل ماترونه تحت سماء مصر مما ينطبق عليه اسم السعادة والفضيلة فهو ثمرة من ثمار غرس مولانا العباس

ولقد أنجبت الأمة المصرية في عهد علمه الزاهر في العلوم والصناعة الى حد يصح معه أن تتخذ لها المكان الأقصى في مصاف الأمم الحية الراقية

وفي مثل هذا العقد الاجتماعي الحيوى أكبر دليل يدلنا على أن الأمة المصرية قد أدركت قيمة ذلك الدرس الاخلاقى » أدركت سر تلك الروح العمرانية وهى « واجب الرعيـة أمام راعيها » أوبعبارة أخرى « واجب الجند أمام الأمير »

أيها الساده

الملك من الأمـة بمثابة الرأس من الجسم أوبمثابة الروح من ذلك الغـلاف الجسمانى وأيًّا ذهبت فهو تضامن وضعي ووفاق طبيعى وأجزاء تركيبية سلطانها الرأس فهى الكل الذى تقوم به تلك الأجزاء وما كنا لنرى حيًّا فى الوجود بلا رأس

والأمم التى تحاول الانشقاق عن ملوكها بعامل الاوهام والظنون فتلك التى قضت على نفسها بنفسها وهى التى حاولت أن يكون لها وجود فى الوجود من غير صورة رئيسية تعرف بها أومن غير أصل رئيسى تقوم عليه

ان اليوم الذى نرى فيـه الثقة متبادلة بين الملك والأمة لهو اليوم الذى يقف فيه تيار وباء العاملين الى التفريق باسم الوطنية وما كانت الوطنية

الصحيحة لتقضي بانقسام أجزاء تركيبية لا سبيل الى قيام كل جزء منها الا بالآخر

أيها السادة

ليس من الوطنية بل ليس من الدين العمل لروح التفريق بين الراعي والرّعية والا لأضحكنا الأمم الأجنبية علينا باسم الدمقراطيـة يحسبون أنهم يحسنون صنعاً والله فوق مايظنون

وانما الدين الحق هو العمل لتقرير روح الإخاء والوفاق بين العناصر المتباينة وبذر روح الثقة بالأمير والاخلاص للعرش والانصياع لأولي الأمر (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) ومن يطع الملك فقد أطاع الرسول ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله ذلك لأن الملك خليفة عن الرسول والرسول خليفة عن الله فيما جاء به من الاحكام لسعادة بني آدم في هذه الحياة الاولى والثانية

يقولون قد أقبرت الحرية (كلا) قم واخطب في الناس ماشئت من العلم قم وانشر ماشئت من الأدب قم واكتب ماشئت في السياسة الصحيحة تجد الحرية واقفة على أربع رجليها تلبي نداءك نعم مات شئ يسمونه بالحرية وماهو من الحرية في شئ ولـكننا نتساءل من الذي أماته

أماته ولا ريب الحوادث الزمانية والمـكانية فهي المشرعـة في الامم وهي الواضعة للقوانين

أيها الساده

هذا كله تقرره فينا النواميس الطبيعية فلا حاجة بي الى الاطالة فيه وإنما أريد أن أذكر لحضراتـكم نبذة عما يتعلق بعناية مولانا العباس بتلك الـكلية الشرقية ومهبط الشريعة الاسلامية التي لا تذكر مصر إلا وتذكر

هى بجانبها (ألاوهى) (الازهرالمعمور) تأسس ذلك المعهد الدينى الذى هو الكعبة العلمية للمسلمين فى كل بلاد الدنيا فى يوم السبت ٢٤ جمادى الاولى سنة ٣٥٩ وكان ذلك في عهد الدولة الفاطمية ثم مرت به أدوار متباينة سقط فى بعضها نجم العلم وارتفع ولعبت بذويه لافرق بين العالم والمتعلم يد الجهالة العمياء ولكن لم تكد تلك الازمة تسود وقتئذ كانت السلطة فى الدولة الاسلامية للاعاجم الا وقد نسفها الله بريح عاصف (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) ولقد عمل بعد ذلك لرقى تلك الجامعة الدينية كل من جاء من الخلفاء والأمراء وأدخل عليه فوق علومه الدينية والعربية علوم من العقليات والطبيعيات والرياضيات التى لاتصادرها شريعتنا السمحه ثم خطي خطوته الواسعة فى زمن الاسرة الكريمة الخديوية حتى الى عصر مولانا العباس فوجه عنايته لغزارة مادته العلمية وأدخل عليه من النظام بعد الفوضى مامست اليه الحاجة العملية وقضت به الظروف العصرية كما قدمنا

كانت الكتب الأزهرية متبعثرة بالاروقة تتناولها الأيدى من غير ضابط يضبطها فآواها سموه الى دار واحدة تجمعها تلك هى مانسميها اليوم (بالكتبخانة الأزهرية) وذلك بعد أن شيدصروحها بمافرضه من الكتب من مالية الأوقاف وجعل لها عمالاً ومديراً يتقاضون المرتبات الضخمة من أهل الأزهر أنفسهم

كان الطالب الأزهرى بالأمس يبتدئ ليشتغل بالعلم من بحبوحة شبابه الى شيخوخة عمره وقليل أن ينال وظيفة التدريس لعقم التعليم وإذا هو كان فلتة من فلتات الطبيعة فنالها ودّ أن لومات أستاذه علّ أن ينال

نصيباً من مرتبه الذى يوزع بعد موته على عشرات الرجال

كان العالم الازهرى بالامس يتقاضى سبعين قرشاً صاغاً شهرياً ومنهم من لا يتقاضى مليماً واحداً ولكن أبت عناية سمو الأمير الا أن يحترم العلم والعلماء فأصبح من كان يتقاضى بالامس عشرات المليمات يتناول عشرات الجنيهات شهرياً فمن بين الازهريين الآن من يأخذ خمسين جنيهاً ومائة وأكثر من ذلك بعد لاشئ

كانت الامتحانات والأعمال الادارية تنظر بدار شيخ الجامع الازهر كان وكان من ضروب الفوض مما لو فصلناها للجأنا الى ضخام الاسفار ولكن أبت العناية العباسية الا أن تتوجه الى اصلاح تلك الكلية الشرقية التى بها اصلاح العالم الاسلامى أجمع فوهبها سموه نظاماً وجعل فيها مجلساً عالياً ثم مجلساً أعلى لتقوم هذه المجالس النيابية عن سموه بفضيلة الشورى وفوق ذلك فقد جعل مندوبين ليسيروا بالازهر خطوة الى الامام على النحو الذى اقتضاه الرقي العصرى وفاء بحق احترام العلم والعلماء واذا مست الحاجة في كبريات المسائل الى رئاسة سموه للمجلس الأعلى فلفضيلة شيخ الأزهر حق مطالبة سموه بذلك

كذلك تكون سنة الملوك فى الامم وهكذا تكون عنايتهم بالعلم والعلماء

هذا وأختم كلمتى بالضراعة الى الله في أن يحفظ لنا ذلك العرش العباسى وأن يلهمنا العمل بديننا الذى هو ينبوع المدنية والحضارة وأساس السعادة والارتقاء (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما) (تتمة)

وما كان سموه ليعتنى بالأزهر هذا النوع من العناية الملوكية الا لأنه يعلم أن سعادة العالم الاسلامى وشقاءه دائران مع رقي الأسلوب التعليمى

الديني وانحطاطه فكلما أثمر غرس العلوم الدينية علماً وعملاً كلما كان ذلك أحفظ لنواميس الدين وأبقى لسلطان الاسلام ومنعة المسلمين

انى أعتقد ولا يمكن لاىّ فرد مهما أوتى من قوة البيان أن ينكر علىّ اعتقادى بأن أهل الازهر أغزر الناس مادة فى العلوم العربية المقررة في قانون امتحان (العالمية) وأنهم نبغوا في تلك العلوم نبوغاً لم يكن لأية طائفة في كل بلاد الدنيا أن تدعيه لنفسها وان كانوا يتفاضلون على بعضهم في خصوصيات لم تكن للبعض الآخر وبقدر ثقتى بغزارة مادتهم فى العلوم العربية بقدر ضعفها بالنسبة لبعضهم فى العلوم الدينية كعلم تفسير القرآن وعلم السنة رواية ودراية وغير ذلك

ولولا عناية الله بعباده في فهم أسرار كتابه وسنة رسوله لما أوجد بينهم ذلك الامام الأكبر شيخ الاسلام مولانا الشيخ سليم البشرى يكشف لهم فى بكرة كل يوم عن أسرار كتاب الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فتراه يوحى الى قلوب المخاطبين بسحر بيانه صحيح الحديث وسقيمه ويميز لهم المحكم من المتشابه والعبارة من الاشارة والمتصل من المنقطع والغريب من المفرد لانه أعلم الناس فى زماننا بالأسانيد والاخبار وما عرض لها من الجرح والتعديل

إنى لا أقول إن فضيلة الشيخ البشرى مفرد فى علم حديث رسول الله تحت سماء مصر فقط (لا) بل هو الوحيد فى كل بلاد العالم الاسلامى

فلئن كان أهل الازهر أغزر الناس مادة وهو سيدهم كان ولا ريب سيداً على من ساد عليه أبناؤه المفضولون له بالطريق الاولى

إن لنا من كبير الأمل بالنشأة الحديثة الازهرية مايجعلنا نثق بأنهم

سينسجون على مبدء شيخهم الأكبر فيمنون بالعلوم الدينية عنايتهم بالعلوم العربية (ربنا هب انا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا)

الاتحاد الجنسى

﴿ داعية الاخاء ووازع التعاون ﴾

الدولة من الامة كالرأس من الجسم اذا اختلت اختل نظامه وبطلت آلاته والدولة سلطان بالجند والجند عسكر بالسلطان وبعبارة أخرى الرعية بالراعي والراعى بالرعية فاذا تطرق الانحلال الى ذلك التركيب التأليفي ونفذ الى أى عضو من الاعضاء سرى ذلك الفساد الكهربائى الى كل عروق الجسم ولا ينفع الدواء بعد الموت

من أجل ذلك نقول انا مع الدولة العلية متعاقدون متضامنون فى كل مايحيط بنا أوبها تحت جو سماء الحياة متبايعون على التعاون باعتبارنا مصريين (لا مسلمين فقط) نسكن بلداً واحداً تحت سماء سلطتها السيادية فاذا أصبحت طرابلس الغرب التى تبلغ مساحتها مليوناً من الكيلومترات المربعة ويبلغ سكانها مليوناً ونصفاً خصوصاً وانها ايالة عثمانية للدولة العلية السلطة الفعلية عليها لو أصبحت هذه مستعمرة إيطالية لفقدنا من القوة الحربية والمادية مايؤخرنا عن السعى الى الامام خطوات الى الوراء

انا نعلم ان سواحل تلك البلاد حصينة القلاع كثيرة الذخائر والمدافع ملئة مخازنها الحربيـة بالاسلحة والآلات العسكرية وان اهلها متبايعون

نشرت هذه الكلمة فى مبدء الحروب الطرابلسية فى اللواء بتاريخ ١٠ شوال سنة ١٣٢٩

على الاخاء الدينى تجمعهم العصبية العربية الاسلامية وبها ٤٤ الفاًمن الجنود الشاهانية ومهما يكن من شأنها الاستعدادى الحربى وبطشها العسكرى فمن المفروض شرعاً على كل ولاية عثمانيـة بحكم ذلك العقد الاجتماعى أوالتركيب التأليفى العضوى بين السلطان والرعية ان تمد يدالمعونة وتنازل تلك المنايا التى تحوم حول اسقاط عرش سلطاننا وضياع مجدنا والاتطاولات علينا يد الغاصبين من كل جانب فنصبح مضغة تحت أنياب أفاعيها

فيا أيها المصريون أناديكم باسم الجنسية المصرية أن تقـدموا نفسكم ونفيسكم فى استبقاء أرواح اخوانكم وتعملوا الحياط ما استطعتم فى استبقاء تلك الـكثرة التى تجسم سوادكم وتـكثر عددكم

أناديكم أيها المصريون باسم الجامعة التى تجمعكم مع اخوانكم الطرابلسيين جامعة التبعية الى دولة واحدة فاذا ماهم خذلوا خذلتم وقل عددكم بفقدان اخوانكم وقلت ثروتـكم بضياع أموالهم ووهت شوكتـكم بنزول عرش سلطانكم لأنكم أمة واحـدة تجمعكم رابطة الجندية تحت لواء عرش سلطان واحـد ... وأنتم أيها المسلمون أناديكم باسم الجامعة الاسلامية ان تتسابقوا الى الاكتتاب بقدر ماستطعتم لاخوانكم الذين تجمعكم بهم فوق تلك الرابطة الجنـدية جامعة الاخاء الدينى (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون

فتح طرابلس الغرب عمرو بن العاص رضى الله عنه فى سنة ٢٣ للهجرة المحمدية وقد تناوبتها اطوار متباينة آلت الى استيلاء السلطان سليم الثانى عليها سنة ٩٥٨ بعـد ان كانت تحت ولاية آل حفص من أمراء تونس وقد كانت مستقلة فى إدارتها حتى انشق حا كمها (يوسف باشا القره منلى)

عن طاعة الدولة ثم آلت المسألة الى استيلاء الدولة عليها استيلاء تاماً سنه ١٨٣٥ وأخذت إيطاليا تعمل على اغتصابها ولكن بفضل تلك الجامعة العصبية العربية ستفشل فى مسعاها كما فشلت في حربها مع الحبشة (وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون)

هذه ولاية من ولايات الدولة الاسلامية يجب علينا بمقتضى الغيرة والشهامة العربية أن نتفانى فى سبيل حفظ كرامتها لأنها أثر من أعمال آبائنا الأولين

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم

نظرة علمية

﴿ آية من آيات الله ﴾

« فاعتبروا يا أولى الأبصار »

« قرآن شريف »

ما كان لله فى سنة النظام أن يجعل لشىء من الكائنات عمراً أبدياً فى الحياة ومهما يكن للانسان من التعمير المحدود فيها فليس له من النصيب منها بأكثر مما يغرسه من بذور الاخلاق الفاضلة فى نفس نوعه من بنى آدم والا كان رمية عقيمة من فلتات الطبيعة تلك آيات الله وما كان لى من العلم بها الا من الوجدان الانسانى

وقعت هذه الحادثة بتاريخ ١١ رمضان سنة ١٣٢٩

الانسان انسان بالوداعة والسماحة انسان بالعواطف والصباحة انسان بالعقل والارادة انسان بالكمالات الدينية انسان بجميع ضروب الاخلاق الفاضلة والا فهو كما تسميه (ولكل قاعدة شذوذ)

هذا هو الشأن في الانسان وذلك هو الذى يجب أن يحصل من نتيجة مسعاه في هذه الحياة القصيرة والا انقضى خاسراً للحياة الأولى والثانية . يكد الانسان في حياته ويتعب لا ليحصل ما يعلو به الى سماء عالم الملكوت الأعلى ولكن ليحصل أغراض نفسه البهيمية كأنه يظن أن يعمر في الحياة أبداً أو ليس ثمة رقيب عليه من نفسه يهدده على ذلك الذى نزل به من المجد والشرف الديني

ليس انقضاء هذه الحياة التي نخالها خالدة (أبداً) بعزيز على الله) واليك حادثة ليست هي في بابها من أولي الحوادث اعجاباً ولكني لا أريد بذكرها الا أن تكون آية من آيات الله للاعتبار بها (وما يتذكر الا أولوا الألباب)

في الساعة الثامنة مساء في ليلة أمس لبثت جالساً مع شقيقي ووالدى وبعض الزائرين لي من رجال العلم في مجلس الفطر من سلاملك المنزل بجوار المنتزه داخل السور (دائرة الجنينة) وقد أخذ الحديث بنا يجرى مجراه الطبيعي في مواضع علمية متنوعة حتى انتقلنا الى قول الله تعالى (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاً وتصدية

أخذنا نتفاهم في كلام الله حتى أخذت بنا نشوة الاعجاب بآيات الله في الكون مأخذ الدهشة واذا نحن كذلك في عالم النظر الا وقد بعث الله

لنا آية أخرى ما كنت لأبصرها على تلك الصورة الضخمة وذلك الشكل المريع قبل ذلك الحين (والله خلق كل دابة من ماء فنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء)

أخذت الأحاديث العلمية بنا تجرى مجراها وكنا في ذلك المجلس أصنافاً فمنا من كان يصرف نظره الى استنارة تلك الكواكب الوضاءة فى وسط ذلك الأديم الأزرق وآخر كان يجول بنظره فى عالم الطبيعة أمامه من عجائب الازهار وغرائس الاشجار ولكن أخى كان يبعث بنظره تارة الى عالم السماء وأخرى الى عالم الأرض)

تتالت نظراته كذلك فاذا هو قد أبصر جرما مستطيلا أسفله على شكل اسطوانى يبحث على بطنه لا يقل طولا عن ثلاثة أمتار أخذ ذلك الجرم يقل نفسه بتعسف لشدة ثقله وهو متدرج على نحو درجات السلم من السلاملك ولكن قد أحالت العادة رؤية ذلك المنظر فى ذلك المكان الفخيم فأخذ شقيقى ينازع نفسه مغالطة حتى كان ذلك الثعبان منى قاب قوسين أوأدنى ولما رفع برأسه عن الأرض متراً تقريباً وكان لقامته من العلو على نحو مجلسى « من الكرسى » كان مثله مثل الماء فى بعض المجارى الزراعية فى مدة الفيضان يأخذ فى طريقه ما يصادفه ولم يسع أخى بعد تحقق ذلك الوحش الهاجم الا أن اختطفنى بلهجة قد غيبتنى عن عالم الوجود وان نشوة الارهاب بذلك المنظر الرهيب قد جعلتنا ندع ذلك المكان الفخيم لذلك الزائر خفية ونؤب الى دائرة الجنينة أوذلك الاجم الذى هو مكمن الثعبان ... هذه حادثة غريبة فى معناها نعم غريبة لان العادة قد أحالت رؤية وحش كبير كهذا (على سلاملك سراى) مشيدة الصرح متينة البناء مزخرفة

في الخارج روضـة في الداخل لايجد صغار الحيوانات من النمل لمسكنه فيها سبيلا نعم غريب أن يوجد فى وسط قوم وهو فى استطاعته ان يأكل عشرات الرجال ويحارب المئات منهم ثم يفرون منه وهو تحت أقدامهم يجر بنفسه حتى كان لبحثه على بطنه صوت كصوت النيل فى زمن الفيضان ولـكن لله فى الـكون آيات والحياة سريعة الزوال (تلك آيات الله نتلوها عليكم وربك يخلق مايشاء ويختار إن في ذلك لعبرة)

مناقشة دينية

﴿ حول كتاب رفعتُ به الى سمو الخديوى ﴾

رفعتُ الى سمو الخديوى كتاباً سنة ١٣٢٧ لأحظى بمقابلة سموه وقد جاء فى ضمن الـكتاب هـذه العباره « الى سموّك يارب العباد » فأنكرها علينا سعادة الأستاذ (محمد بيك فريد وجدى) يومئذ كان الدستور باقياً فى عالم الصحافة ولما بعثنا لسعادته بالرد عليه نشره بالدستور بتاريخ ١١ صفر سنة ١٣٢٧ تحت هذا العنوان

« طالب أزهرى فاضل »

﴿ يطلب مقابلة سمو الخديوى ﴾

أما كتاب الرد على انتقاده فهذا نصه

﴿ عزتلو المفضال مدير الدستور الأغر ﴾

جاء بالأمس فى دستوركم الأغر إثر كتابى الذى رفعت به الى الجناب العالى مانصه :

الدستور (لايصح لنا نشر هـذا الخطاب بدون ابداء ملاحظة على ماجاء فيـه من لفظ (رب العباد) (فانه لا يليق توجيه مثل هـذا التعبير الى المخلوقين)

ولو كان بى مابه أن أشكركم على انتقادكم وملاحظاتكم الدينية فى الاتيان بألفاظ ربما منع الوهم اطلاقها والخيال التعبير بها لسخرت يراعى ولحركت بنانى ولاستخدمت كل حاسة فى سبيل القيام بالثناء على حضرتكم لغيرتكم الدينية ولـكننا مع ذلك نرى ان لامندوحة من الرد على انتقادكم هذا الذي ليس له فى الحق نصيب)

لاريب أن الدستور متفق معى فى أن الرب يطلق على كل من تولى شأناً أوتقلد قيادة أوعهدله أن يدير دائرة أىّ عمل فى عالم الله الذى جعل لكل نفر من عباده ربّاً يسوس شؤنهم ويتولى نظام سيرهم فى سفرهم الى مايكفل سعادتهم الدينية والدنيوية حتى لا يبخس حقه فى أن يكون مكانه من النسبة بينهم مكان السيد بالنسبة للعبد ومن استقرء كلام العرب وتتبع قضاياهم النثرية والشعرية لما وجد مثرباً للانتقاد علينا فى ذلك التعبير ويعلم الله ان رجال اللغة حتى الى اليوم مازالوا يقولون (رب الأيادى البيضاء) (رب المعالى) (رب البيت) ورأينا فى الدستور مايشابه ذلك

أظن ان المتنازع فيه انما هو النسبة بين الموضوع والمحمول فى تلك القضية الموجبة ولـكن الدستور وهو رجل البلاغة لايحرم علينا مراعاة المجاز والا فليمنعه من القرآن الشريف الذى هو كعبتنا التى نحج اليها وامامنا الذى نصلى خلفه نعم ان أسماء الله توقيفية لايجوز اطلاق اسم عليه تعالى الا اذا جاء النص من كتاب أوسنة ولـكن ذلك لايمنع من التعبير بها واسناد بعضها الذى

لم يكن مخصوصاً به جلّ وعلا للمخلوقين على ضرب من المجاز هذا وإني رافع شكري وتفضلوا بنشر هذا في محليات اليوم خدمة للانسانية وقياماً بواجب الحرية هدانا الله جميعاً الى الصواب

الكلمة الختامية

﴿ نفثة مصدور ﴾

لو توحدت وجهة الانسان في النظر وجعل لوازع الحق فيه سلطاناً على نازع الباطل وأرسل مداركه تكشف كنه ماأبدع الله من جمال الطبيعة وأسرار الكائنات وبحث النسب بين الأشياء كنسبة الكثرة الى الوحدة وما يتولد باسناد إحدى النسبتين الى الوجود المطلق وكنسبة الوجوب الى الامكان ثم ترقي من هذا الطور فنظر في مبدء هذا الوجود الممكن ومصدره وغايته وأطوار النفس بعد رجوعها إلى مبدئها ومنشئها لو توحدت وجهته كذلك لما رأى للعدول عن الاعتراف بذلك الوجود المطلق وما يليق به من صفات الكمال سبيلاً ولكن لله من الحكمة فوق ماندرك (ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين الاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم)

ان في كل نفس وازعاً يوحي إليها قوة هي مصدر جميع هذه القوى الكونية ولكن تكاسف الروح البهيمية قد ماتت معه نواميس الوجدان فأصبح الانسان بين نيران تلك الحيرة يتطاب النجاة من هول ما وقع به وإن كان الدواء كامناً بين جنبيه

وقد يعلم بعض الحمق من المرضى أن دواءه في ترك نوع معين من

المأكولات ومع ذلك تراه لايمسك عنه بل يتناوله ويعلم أن فيه سموم القضاء على حياته قضاء لحق نازع الحيوانية فيه (إنه كان ظلوماً جهولاً)

هذا وإننا اليوم لفي زمن قد طمست فيه معالم الحق وأصبح الناس فرادى لايجدون لهم رابطة يرتبطون بها بما نبذوا من الدين فولاّهم الله قبلة ماشاؤا (اختلطت أنسابهم وتهتكت حرماتهم وتقطع مابينهم من صلات الألفة الدينية وصار الأخ غريباً عن أخيه والولد غريباً عن أبيه الكل في حروب دائمة تحت حجاب الجهل بالدين (أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) (من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب) فاللهم يارب بفضلك أحطنا بعنايتك من الوقوع في هول هذا العذاب النفسي وحصل لنا أسباب الوصول اليك بمحض توفيقك فليس الا بك الحول والقوة) أنت يارب قد أنعمت عليّ بما به قد عرفتك فوفقني الى العمل الصالح بقدر مايعصمني عن الوقوع تحت سلطان النفس وغوائلها وما سعادة العبد إلا بلقاءك سالماً

ولقد أجاد الحكيم العربي في قوله

وإذا افتقرت الى الذّخائر لم تجد زخراً يكون كصالح الأعمال

(ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) (ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد) (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) آمين

تم تأليف كتاب روح العمران يوم الثلاثاء ٩ صفر سنة ١٣٣٢ من الهجرة النبوية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين

التقاريظ

قال الامام الحكيم والفيلسوف المنطقي الكبير فضيلة الاستاذ الشيخ محمد حسانين العدوى وكيل مشيخة الاسلام والمدير العام للمعاهد الدينية مقرّظا (مانصه)

روح العمران

كتاب دبجه يراع الأستاذ الفاضل الشيخ محمد فراج احمد الازهرى المنياوى فى أبحاث شتى اجتماعية وعمرانية — وقد ضمنها حضرته من التنبيه على فضل العرب فى نشر المدنية والارشاد الى حكم القرآن وبعض أسرار الشريعة الاسلامية مايروق تصفحه وتجمل مطالعته فنحن نثنى على همته ونشكر له عنايته بنشر مثل هذه الابحاث العلمية المفيدة ؟ وكيل الجامع الأزهر والمدير العام للمعاهد الدينية

وقال الشاعر المجيد والعمرانى الكبير فضيلة العلامة الاستاذ الشيخ احمد الحملاوي من كبار علماء الأزهر المعمور وناظر مدرسة عثمان باشا ماهر مقرظاً (مانصه)

لله من (روح) بروح المسك عاطرة   قد صيرت جسم هذا الكون (عمرانا)
حوت بديع المعانى فازدهت وزهت   وألبست من رقيق اللفظ تيجانا
لله أنت أبا (فراج) من رجل   أنشأتها فغدت للكل تبيانا
لازلت فى سلم العلياء مرتفعاً   ولا برحتَ بفضل العلم مزدانا

كتبه (أحمد الحملاوى)

أحد علماء الأزهر وناظر مدرسة عثمان باشا ماهر

تنبيــه على بعض ما تقدم في المحاضرتين السادسة والسابعة

﴿ تعدد الزوجية في الاسلام ﴾

لم يكن موضوع الزوجية في الاسلام ليحتاج الى أن يترجم عنه بهذه الترجمة فالتعدد معروف من نصوص كتاب الله وسنة رسوله مباح لكل من توفرت له وسائل القيام بحقوق الزوجية وكان له من ملكات العدل مايذهب به الى مراعاة حدود الله فيها

ومعلوم أن إنكار التعدد كفر ببعض أحكام الله وأية زندقة وراء الجحود بحكم قد علم من الدين بالضرورة

اذا كان التعدد معروفاً مألوفاً فما هي الداعية الى الترجمة به

لم يكن ليضطرنا إلى ذلك إلا ما نخشاه من أن يتبادر لبعض أذهان العامة أنا لا نقول بالتعدد أخذاً من مجرد تلك الترجمة السابقة

(وحدة الزوجية في الاسلام) على أن من درس هـذا الموضوع في تلك المحاضرة درساً صحيحاً تيقن بداهـة أنا لا نقرر إلا حكم الله فيها ونعمل على محاربة ماعليه المسلمون في هـذا الباب باسم الاسلام حتى أنهم أعطوا لانفسهم من السعة في الزوجية مالم يكن الله ليعطيه لهم وربما باع الرجل متاع بيته في سبيل أن يتزوج على زوجته الاولى ثانية وثالثة ورابعة لالغرض تحصيل حكمة التشريع في الزوجية بل لحاجة في نفسه يقضيها فاذا أحاط به بلاء الفاقة اضطرته عواملها الى تمزيق ثياب الدين فتراه إثر ذلك يفعل ببعض زوجاته وأبناءه مايبرأ منه الله ورسوله والملائكة وأهل العلم أجمعون

إن الذي قلناه في المحاضرة السابقة ولا زلنا نقوله ونبقى عليه حتى نلقى الله تعالى ان مسألة الزوجية تتناوبها الاحكام الخمس فكما أن التعدد يكون

حراماً اذا تولد منه حروب عائلية بين الرجل وأبناءه وزوجاته لعامل الفقر ومرض الاخلاق يكون واجباً عند وجود مقتضيه كما اذا مست الحاجة الى كثرة سواد جيش المسلمين عند العدوان على كثرتهم بأية عادية تعدو اليهم مماهو معروف في أخلاق الانسان في كل زمان وكما يكون حراماً تارة وواجباً أخرى يكون مباحاً عند عدم اقتضاء الوجوب أو الحرمة بشرط أن يكون للانسان من الوسائل وملكات العدل ما يعطيه القيام بحقوق الزوجية ومراعاة حدود الله فيها

إن قولنا في المحاضرة السابقة (الوحدة أقرب الى السلام من التعدد) يرجع في المعنى الى قول الله (ذلك أدنى أن لا تعولوا) كما أن التلويح الى النتيجة بعد ذكر مقدماتها بقولنا (الى هنا نعلم أن العبد مكلف ببذل الجهد لتحصيل عدل يناسبه والا كان التعدد حراماً) يستحيل معه أن يتقول علينا قائل بأنا لا نقول بمشروعية التعدد اللهم الا اذا كان من أولئك الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فأصدر حكمه علينا وماله بذلك من علم الا اتباع الظن

بقيت ملحوظة أخرى في غير هذا الباب يجب التنبيه عنها وهى انه ربما يتوهم البعض في مطالعته المحاضرة السادسة أنا لا نقول بتكليف من بلغته الدعوة الاسلامية من الغرباء عن لغة الاسلام وقوانينه والبلاد التى قد سطع نوره فيها (لا) بل المسألة كلها مفروضة في قوم وجدوا تحت قطيع من السماء وهم عن الاسلام ولغته وقوانينه وبلاده غرباء ولم تصل اليهم الدعوة بأيّ طريق يفهمونه وقد فقدوا من الوسائل كلها ما يمدهم في سبيل الرحيل الى طلب الدين فأمثال هؤلاء لا نجد لمؤاخذتهم سبيلا اللهم الا

بمحض الاعتراف بتلك القوة المصدرية التأثيرية التى هى مصدر إبداع هذه الكائنات بمقتضى ما أودعهم الله من العقل هذا والله أرجو أن يطهر قلوبنا مما يخالطها من أمراض النفس « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده »

تقريظ

وقال حضرة المفكر الكبير والأصولى الاخلاقي فضيلة الاستاذ العلامة الشيخ محمد يسن الجندى المالكى من كبار علماء الازهر مقرظاً (مانصه)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله اختص الانسان بالبيان وفضله بالحكمة والتبيان والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبي الأمة وينبوع الحكمة وعلى آله وصحبه الذين شادوا الدين واعتصموا باليقين (وبعد) فقد قرأت شذرات مما أبدعه يراع ذلك الكاتب القدير ونسجه بمنوال براعته ذلك الحكيم الخبير الشيخ محمد فراج احمد الازهرى المنياوى فكفانى ذلك القدر اليسير دليلا على ما له من التفوق وسعة الاطلاع والزكاء النادر فى عالم الابداع والاختراع دلنى ذلك التحبير والتأليف على عدة كامنة فى الشرق لابدلها من يوم تصرع فيه الغرب فى ميدان التسابق فى الافكار وتبرهن على أفضليته بأهله اذا زالت الحجبات والموانع عن الافكار وتحررت عن رقة الاستعباد والتقييد بالموروثات من العادات والعقائد الفاسدة

غريب هذا الزكاء النادر من مثل هذا الشاب الكبير على صغره

وعجيب أن يأتي بمثل هذه الفكرة السامية التي تحتاج لعمر طويل وتجارب كبير وتعلم كثير من بلغ سن هذا الحكيم المفرد بيد أنه شذ عن قاعدة التأليف المألوفة ونبغ طفرة غير معروفة ولا عجب اذا كان العقل الصحيح رائده والفكر السليم قائده والحرية الدينية سلاحه والصراحة ديدنه ونبذ التقاليد يقينه أن يأتي بغرائب الافكار وعجائب الاقتدار هذا لعمر الحق عنوان على ما للشرق من دفين الزكاء وسابقية الارتقاء فهو أستاذ الغرب مدنية وفكرا وان كان قد كبا جواده بعد حيازة قصب السبق في مضمار الاكتشاف والاختراع فلا بد لكل فارس من كبوه وسيرجع الى ما كان له ببنيه حيث بدا سناضوئه من طالعة قومه صاحب هذا السفر الذى قام دليلا على صدق طلوع فجر العرفان من مطلع شمس القرآن يخيل لى بقراءته انى فى زمن النبوات وانى أطالع ما يوحي من الآيات البينات الدالة على قدرة الله بما أودعه من المعانى الحقيقية والأسرار التى كنا نخالها من قبل خفية لاتدركها العقول حتى أبان لنا هذا الشاب الفتى الكبير بعقله ماقد عجز عنه قادة الامم وصغرت من تناوله مدارك الكثيرين من أهل العلم فلا غرو اذا كان هذا الكتاب مع صغر حجمه معجزة في قدره وعامه يهتدى به السالك الى سبيل النجاح والفلاح ويصل به المسترشد الى التمسك بأسباب الاصلاح فابشر عن تكون هذه المجالة باكورة أعماله أن يكون للشرق من نهايته جلة أعماله

كاتبه

محمد يسن الجندى

من علماء الازهر الشريف ومدرس بالقسم النظامى

(الخطأ والصواب الواقع فى هذا الكتاب)

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤	٣	مجلس للاداره	مجلساً للادارة
	٤	ومجلس عالى	ومجلساً عالياً
	٤	ومجلس أعلى	ومجلساً أعلى
	١٥	من الأذكياء	من الأزكياء
٥	١٠	ترفرف أيداً	ترفرف أبداً
٧	١٥	ضرورة الوزاع	ضرورة الوازع
٨	٢٠	الظلوم عشوم	الظلوم غشوم
١٣	٨	وتمة فى هذا	وثمة من هذا
١٤	١	بالعوائد	بالعادات
١٥	١٢	لتنظم حبل الجماعة	لا انتظم حبل الجماعة
١٧	١٨	ما ستطعت	مااستطعت
	١٩	علىّ أن يكون	علىّ أن أرى
	٢٠	رزيلة	رذيلة
٢٥	٢	يقدر	بقدر
٣٦	٩	النزوع	النزوع
٣٩	١١	رمابينهما	وما بينهما
٤٠	٢	كتاب بن الحسين	كتاب ابن الحسين
٤٧	٦	يردنا نسخ	يرد ناسخ
٦٩	١	عضوة عاملة	قوة عاملة

﴿ فهرست كتاب روح العمران ﴾

﴿ تمت فهرست كتاب روح العمران ﴾